# الباب الأول

# مبادئ ومفاهيم

# الفصل الأول

# حول المنهج

# من السردية إلى التداولية

## 1- تأطير:

حققت الدراسات السردية نجاحا كبيرا خلال ما يزيد عن نصف قرن من الزمن تمكنت فيه من بناء مجموعة من التصورات والمفاهيم التي تقارب النص السردي في مستوياته المختلفة، وتجلياته المتباينة. كما أمدت مجال النقد بمجموعة من الأدوات الإجرائية التي تعتبر فعالة في ملامسة المقولات الأساسية التي يقوم عليها النسق السردي.

نشأت السرديات وتطورت ضمن علم عام سمي بـ "الشعرية"، وهو علم جعل من الخلفية البنيوية ركيزة له في تكوين أدواته وأجرأة مفاهيمه. وكما هو معلوم فالشعرية أو "علم الأدب" كما عرف في بدايته كان يهدف إلى دراسة الأدب في ذاته مركزا على المقولات التي تجعل من أي نص أدبا أي "أدبية الأدب". وقد كانت الدراسات الشكلانية الروسية سباقة في هذا المجال بما أنجزته من دراسات خلال العشرينيات من القرن الماضي وهي تضع أسس علم جديد يتجاوز المقاربة التاريخية للنص الأدبي، وجعلت اهتمامها ينصب على النص ولا شيء غير النص، وهكذا كان لمجموعة من الدراسات التي قدمها رواد الشكلانية – تينيانوف، توماشوفسكي، شيلوفسكي، ياكوبسون، وغيرهم – دورا فعالا في بلورة المقاربة الشعرية الشكلانية.

بالموازاة مع هذه الدراسات الشكلانية بدأت تتبلور مبادئ اللسانيات الحديثة التي وضع أسسها العالم اللساني السويسري فردناند دوسوسير، وهي الدراسات التي حاولت تجاوز المناهج الفيلولوجية للتعامل مع اللغة كبنية مغلقة مكتفية بذاتها. وكان لظهور كتاب دوسوسير "محاضرات في اللسانيات العامة" أثره الفعال في توجيه الدرس اللساني الحديث والاهتمام بمستويات اللغة المختلفة التي حددها سوسير: الصوتي، الصرفي، المعجمي، التركيبي، الدلالي. كما ساهمت الثنائيات

الأساسية التي وضعها في بلورة خصوصية المقاربة اللسانية، خصوصا ثنائيتا الدال/المدلول، اللغة/الكلام.

هذه التراكمات المعرفية المتوازية وجدت أرضية خصبة في العديد من العلوم الإنسانية التي عملت على استثمارها واختبار قدراتها الإجرائية في المقاربات النصية. فظهرت اجتهادات ليفي ستراوس في مجال الأنتروبولوجيا، ولاكان في مجال التحليل النفسي، وفوكو وألتوسير في مجال الفلسفة؛ وكلها دراسات حققت نجاحات كبيرة في مجالاتها، وحفزت الدرس الأدبي النقدي على مواصلة المسار البنيوي من خلال المقاربة الشعرية التي تركز اهتمامها على النص وإقصاء المؤلف والظروف المحيطة بالإنتاج.

وجدت الدراسات الشكلانية، وكذا اللسانيات الحديثة إقبالا كبيرا في فرنسا خلال الستينات من القرن الماضي، وظهر مجموعة من الرواد الذين عملوا على مواصلة المشوار الشكلاني، ومنحه الشرعية العلمية في الدرس الأدبي، خصوصا بعدما حظيت النصوص الشكلانية بالترجمة من الروسية إلى الفرنسية على يد تزفتان تودوروف. هذا الأخير الذي شكل إلى جانب بعض الأسماء الفرنسية الأخرى البداية الحقيقية للسرديات الحديثة. وتكفي الإشارة إلى المقالات الصادرة في العدد الثامن من مجلة "تواصل"، لمعرفة الخط الحقيقي الذي كانت تسير فيه هذه الدراسات. فقد كانت تصورات تودوروف ورولان بارت وجرار جنيت، ترسم المسلك الحقيقي لمسار السرديات في إطارها الشعري. و لم تكن محاولات غريماس وكلود برومون تختلف عن سابقاتها كثيرا. فقد اعتمدت نفس الخلفيات المعرفية إلا أنها كانت تجد في التحول في اتجاه السيميوطيقا متنفسا آخر للمقاربة السردية.

القاعدة الأساسية التي قامت عليها المقاربة السردية هي قاعدة شكلانية، تجعل من المبنى موضوع دراستها، وتقصي جانب المعنى، معللة ذلك بأن جمالية الأدب أو أدبية الأدب تتجلى في البناء الشكلي الذي يتمظهر فيه الإبداع الأدبي. وبالتالي كانت مقاربة النص السردي تقوم على وضع ثنائية شبيهة بثنائية الدال/المدلول اللسانية، وثنائية المبنى/المعنى الشكلانية. فأعلن تودوروف في مقاله بمجلة "تواصل" أن للعمل الأدبي مظهرين: فهو قصة وخطاب في

الـــوقت نفسه[1]، وعلى الرغم من الإشارة إلى القصة من خلال منطق الأفعال والشخـــصيات فهـــو يركز على جانب الخطاب من خلال المقولات الأساسية لكل خطاب سردي: زمن السرد، مظاهر السرد، وأنماط السرد[2]. وهي التجليات السردية التي أعاد صياغتها في كتابه "الشعرية"[3] من خلال الحديث عن المظهر اللفظي، وركز فيه على الزمن والصيغة والسرد. وهو نفس التصور تقريبا الذي يؤسسه رولان بارت في مقاله "التحليل البنيوي للسرد"[4] بالعدد نفسه من مجلة تواصل.

تتـــسع هذه الأرضية السردية أكثر مع الدراسة التي قدمها جرار جنيت بداية الـــسبعينات في "خطـــاب المحكـــي"[5]، وقد اعتبرت هذه الدراسة بمثابة المؤسس الحقيقـــي للسرديات الحديثة بما قدمته من مفاهيم وأدوات، وما أثارته من نقاشات واجتهادات لاحقة على مدى عقدين من الزمن تقريبا[6]، ساهمت بدورها في تحقيق تـــراكمات مهمـــة بلـــورت خصوصيات الاتجاه بصورة واضحة جلية، سواء في الدراسات الفرنكوفونية أو الأنكلوفونية. وقد كان للدراسات العربية حظها الوافر في تـــبني المـــنهج والاجتهاد في تطبيقه على مجموعة من النصوص السردية العربية القديمة والحديثة[7].

## 2- أزمة السرديات وإكراهات الانفتاح:

أثـــارت السرديات وهي تهتم بالجانب الشكلي من الأدب نقاشا حادا ارتبط بالتـــساؤل أولا عـــن إبعـــاد القصة والاهتمام بالخطاب فقط. ومعلوم أن القصة

---

(1) T. Todorov. Les catégories du récit littéraire, in communication 8, éd point, 1966.

(2) Ibid., p. 142.

(3) T. Todorov. Poétique, éd point, 1973.

(4) R. Barthes. Analyse structurale du récit, in communication 8, éd point,1966.

(5) G. Genette. Discours du récit, in figures 3, éd seuil, Paris, 1972.

(6) نـــشير هـــنا إلـــى مجموعة من الانتقادات التي وجهت إلى جنيت بعد صدور كتابه خطاب المحكـــي، ومن أهمها مقال مايك بال في مجلة poétique، حول السرد والتبئير، وكذا ردود دوريت كوهن في كتابها: la transparence intérieur. وهو ما دعا جنيت إلى إصدار كتاب آخر في نفس الاتجاه، Nouveau discours du récit.

(7) نحـــيل هـــنا على الدراسات التي قام بها كل من سعيد يقطين، عبد الله إبراهيم، يمنى العيد، مالطي دوغلاس، وغيرهم.

بمكـــوناتها وجدت إقبالا كبيرا في الدراسات السيميوطيقية التي تزعمها غريماس في فرنـــسا. وقـــد كشفت هذه الدراسات عن حيوية الجانب المورفولوجي في النص السردي والذي لا يقل أهمية عن الجانب التركيبـــي المتعلق بالخطاب؛ وهو ما دفع بـــبعض المهتمين بالسرديات إلى البحث عن مسوغ للمزاوجة بين القصة والخطاب في المقاربـــة الـــسردية. وكانـــت للدراسات الأنكلوفونية الدور الأساسي في هذا الانفتاح على القصة[1]، واستطاعت أن تجد مكانا لمقاربة المستوى المورفولوجي من خـــلال الحدث والفضاء والشخصيات؛ وكانت هذه المزاوجة بمثابة متنفس جديد للسرديات من أجل توسيع مجال اشتغالها وهي تتحدث عن مفهوم "السردية". غير أن هذا الانفتاح الجزئي بقي دائما مثار أخذ ورد، خصوصا في ما يتعلق بالإضافات المـــتاحة للدراســـات الـــسردية التي بقيت في مجملها رغم الانفتاح النسبـــي وفية للخلفـــية البنيوية التي تقصي كل مؤثر خارجي في مقاربة النص الأدبـــي. مما دفع بـــبعض المهتمين إلى التفكير في الانفتاح على بعض العلوم الإنسانية التي يمكنها أن تـــساهم بـــشكل أو بآخر في تطوير المنهج السردي؛ فأصبحنا نصادف تسميات جديـــدة مـــن قبـــيل: السوسيو – سرديات، والسيكو – سرديات، والسرديات الأنثربولوجية، وكل اتجاه يبحث عن المسوغات التي يبرر بها هذا الانفتاح دون أن يفقد المنهج انسجامه وخصوصياته، أو يزيغ عن أهدافه التي ترتبط بالنص السردي وطبيعته.

لـــيس هدفنا هنا هو متابعة هذه التحولات التي عرفتها السرديات وهي تنفتح على العلوم الإنسانية، أو تقييم ما حققته من نتائج في هذا المجال أو ذاك. فكل اتجاه لـــه مبرراته وخلفياته، وشرعيته تنبع من خلال النتائج التي حققها بانفتاحه ومدى إقناع رواده بهذه النتائج.

اشـــتغلنا بالـــسرديات البنيوية خلال العقد الأخير من القرن العشرين ونحن نقـــارب نصوصا روائية عربية[2]، وأشرنا أثناء الدراسة أن الجانب الشكلي وحده

---

(1) توجهت الدراسات الأنكلوفونية نحو الانفتاح على الجانب القصصي المورفولوجي، ومن أبرز الدراسات نشير إلى Sh.R. Kenan, narrative fiction, Methuen, 1983.

(2) سعيد جبار، الخطاب في روايات سحر خليفة، رسالة ديبلوم الدراسات العليا، مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط 1993.

غـــير كاف في المقاربة؛ وآثرنا في الانفتاح أن نبقى قريبين من المنهج دون أن ننفتح على العلوم الإنسانية الأخرى. فكان السؤال المحوري لدينا آنذاك هو: كيف نمر مما هـــو شـــكلي إلى ما هو دلالي؟ وقد سبقت الإشارة إلى هذا التعالق بين المظهرين: اللفظي والدلالي في دراسة تودوروف حول الشعرية. غير أنه وهو يستحضر ما هو دلالي ركـــز على سؤالين دون أن يحدد طريقة مقاربتهما: كيف يدل النص؟ وعلى ماذا يدل؟

اهتمامـــي بالسرديات إذن كان منصبا على هذا الانتقال مما هو لفظي إلى ما هو دلالي في إطار سردي خالص. وقد وجدت السؤال الأول "كيف يدل النص؟" في ذلـــك الـــوقت قريب المنال دون أن أنـــزاح عن الشعرية كثيرا. ووجدت في الكـــتاب الـــذي قدمـــه تـــودوروف في بداية الثمانينات "ميخائيل باختين: المبدأ الحـــواري"[1]، خـــير معبر نعبر من خلاله من اللفظي إلى الدلالي ونحن نجيب عن السؤال السابق في إطار ما أشرنا إليه بـــ "شكل الدلالة".

لم تكـــن الدراسات الباختينية بمنأى عن الشعرية الشكلانية، بل كانت تمثل الوجه الثاني منها. فقد نشأت وترعرعت في موازاة مع الشكلانية الروسية غير أنها لم يكتب لها الانتشار إلا بعد ترجمة بعض نصوص باختين من الروسية إلى الفرنسية أو الإنجليـــزية. وتمثلت أهم أعماله في "شعرية دوستويفسكي"[2]، ثم "جمالية الرواية ونظـــريتها"[3] و" فرانسوا رابلي والثقافة الشعبية في القرون الوسطى"[4]. دون أن ننسى "الماركسية وفلسفة اللغة"[5]. وكلها مؤلفات تداخلت مع بعضها وتكاملت لـــتقدم من جهة تصورا جديدا حول مفهوم الرواية وأصولها غير البورجوازية، كما تقـــدم من جهة ثانية تصورات منهجية في مقاربة جانب الدلالة في النص السردي بصفة عامة والرواية بصفة خاصة.

لقـــد أســـعفتنا هذه الدراسات في توظيف مجموعة من المفاهيم الجديدة التي تـــساهم في مقاربة الخطاب السردي، وهي مفاهيم تنقلنا بانسجام تام مما هو لفظي

---

(1) T. Todorov, Mikhaïl bakhtine, principe dialogique, éd seuil, Paris, 1981.
(2) Mikhaïl Bakhtine, poétique de Dostoïevski, éd seuil, Paris, 1970.
(3) Mikhaïl Bakhtine, esthétique et théorie du roman, éd Gallimard 1978.
(4) Mikhaïl bakhtine, l'œuvre de François Rabelais et la culture populaire au moyen âge et sous la renaissance, éd Gallimard 1970.
(5) Mikhail Bakhtine, Marxisme et la philosophie de langage, éd de Minuit, 1977.

إلى مـــا هو دلالي مثل التناص، التعدد اللغوي، البوليفونية، وأسلوبية الخطاب التي ركز فيها باختين على دور الخطاب غير المباشر الحر في تفعيل تداخل الأصوات في الملفوظ الواحد.

انطلـــق باخـــتين من انتقاد الطرح الشكلاني الذي حاول أن ينسخ علما للخطاب "الشعرية" انطلاقا من علم للغة "اللسانيات"، وهو نسخ مستحيل في نظـــره[1] ليؤكد على أن "النص" هو موضوع يوحد كل العلوم الإنسانية، على الـــرغم مـــن تعددها وتباينها. غير أن باختين يتوقف من بين هذه المنظورات المخـــتلفة التي يمكنها أن تقارب النص عند منظورين اعتبرهما أساسيين: المنظور الأول هو لساني، والآخر يحيل على تخصص لا يحمل في البداية أي اسم، وأشار إلـــيه في كـــتاباته بـــــ "العـــبر لسانية"، وهو يشبه في مقاربته إلى حد بعيد "التداولـــية"[2]. وكـــان في البداية يرى أن هذا التخصص الجديد يمكنه أن يحل محـــل اللـــسانيات[3]. وأهـــم ما يميز الدرس العبر لساني هو أنه لا يدرس كل ملفـــوظ في تفـــرده وخصوصياته، بل يبحث في قوانين اشتغاله بطريقة مغايرة للدرس اللساني.

يظهـــر من هذا الطرح أن باختين كان متجها نحو وضع أسس أولية للتداولية كمقاربة خاصة للخطاب باعتباره ملفوظا يمرر معرفة بين المتكلم والمستمع، وطامحا إلى استكـــشاف الطرق التي يشتغل بها الخطاب في كليته من أجل تمرير هذه المعرفة الـــتي يحملها. غير أن باختين انـــزاح عن المسار اللغوي التداولي الذي كان يرسمه، وانقـــاد خلـــف الخلفـــية المعرفية الفلسفية التي كانت توجه تصوره المنهجي وهي الخلفية الماركسية التي جعلته يرى بأن هذا العلم يكون قريبا من السوسيولوجيا دون أن يكـــون السوسيولوجيا نفسها. وبالتالي فإن مقاربته للملفوظات ارتكزت على فرضـــية اعتـــبارها ذات حمولة اجتماعية تعكس منظورا إيديولوجيا لفئة اجتماعية معيـــنة. ومـــن خـــلال هـــذا التفاعل بين الملفوظات داخل الخطاب الواحد تتعد الأصوات وتتنوع اللغات.

---

(1) T. Todorov, Mikhail Bakhtine, Principe dialogique, p. 43.

(2) Ibid., p. 43.

(3) Ibid., p. 43.

إن الطـــرح الـــذي قدمـــه باختين يحمل في طياته ذاك البعد الانفتاحي للمنهج الـــشكلي الذي هيمن على الدرس الأدبـــي خلال عقود من الزمن، وفتح الباب على مـــصراعيه من أجل مقاربات منهجية تتجاوز اعتبار النص إنتاجا لغويا خالصا، لتجعل مـــنه إطـــارا متعدد الأبعاد وذا بعد معرفي يضمن جسر التواصل بين المرسل والمتلقي، ويدعـــو كـــل دارس إلى البحث في هذه الميكانـــزمات المنتجة لمعرفة النص، والموجهة لإدراكها من طرف المتلقي وهو يلتقط الموجهات التي يعتمدها المرسل في تمرير خطابه، ويعيد إنتاجها انطلاقا من السياق المعرفي العام الذي يجمع المرسل بالمتلقي.

باخـــتين إذن كان سباقا إلى الانـــزياح في المقاربة السردية عن اللسانيات إلى التداولـــية. وأكـــد على دور ما أسماه العبر لساني في مقاربة مستويات أخرى من الـــنص. غير أن طموح باختين لم يتحقق مع ما قدمه من دراسات، بل وجد ضالته لدى جيل لاحق ألح بعمق على التداولية وعمل على ترسيخ نظريتها وتطوير آلياتها في مقاربـــة الخطـــاب اليومي كما الخطاب الأدبـــي. فهل يمكن مد الجسور بين السرديات والتداولية؟

## 3- السرديات والتداولية، أية علاقة؟

### 3- 1- التداولية: تصورات ومبادئ:

### 3- 1- 1- موضوع التداولية:

أشار باختين خلال العشرينات من القرن الماضي إلى علم لم يمنحه اسما معينا، لكنه ميزه بكونه يتجاوز في اشتغاله المستويات التي حددتها اللسانيات كموضوعات لها، وأشار إلى هذه المقاربة بـــ "العبر – لسانية". وبعد مرور عقد من الزمن تقريبا على إشارة باختين، يأتي شارل موريس سنة 1938 ليميز بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة، وحددها في: علم التركيب، وهو الذي يهتم بدراسة العلاقات بين العلامات، وعلم الدلالة، ويركز على الدلالة التي تتحدد بعلاقة تعيين المعنى الحقيقي القائمة بين العلامات وما تدل عليه، وأخيرا التداولية، وتعنى في رأيه بالعلاقات بين العلامـــات ومستخدميها[1]. غير أن تصوره للتداولية كان لا يزال جنينيا، وحصر مجال

(1) Ibid., p. 43.

اهـــتمامها بدراســـة ضمائر المتكلم والمخاطب، والموجهات الزمانية والمكانية، والتعابير التي تستمد دلالتها من معطيات خارجة عن اللغة نفسها، أي من مقام التواصل.

وعلى الرغم من الإشارتين المبكرتين لهذا التخصص من قبل باختين وموريس، فإنـــه لم يكـــتب له الظهور رسميا، وفي صورة منهجية وأكثر فعالية إلا في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين. وقبل أن نتوقف عند أهم الاتجاهات التي عرفتها التداولـــية في تطورها على مسار ثلاثة عقود نشير بإيجاز إلى مجموعة من التعريفات الـــتي أعطاهـــا لها الدارسون؛ لأنها تعريفات كفيلة بتقديم تصور عام عن الحقول والجوانب التي تهتم بها التداولية في مجال اللغة.

- يـــشير بال هيليل Bal-Hillel إلى أن "التداولية تهتم بالرابط الأساسي للتواصل في اللغـــة الطبيعـــية، كما تهتم بالمتكلم والمستمع، وبالسياق اللغوي، والسياق الخارج لغوي... وجاهزية المساهمة في الفعل التواصلي"[1].
- في حـــين يـــرى فرانسيس جاك Francis Jacques أن "التداولية تقارب اللغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في الوقت ذاته"[2].
- ويـــرى سبيربر وويلسون أن التداولية "تهتم بكل المظاهر الملائمة لتأويل الجمل تـــأويلا كـــاملا في ســـياقات معينة، وهذه المظاهر قد تكون مرتبطة بالشفرة اللسانية أو غير مرتبطة بها"[3].
- أما أنكومبر Anscombre ودوكرو وريكاناتي فيؤكدون أن التداولية "تضاف إلى علـــم الدلالـــة لتعيد الاعتبار للمظاهر التي لا تهتم بها الدلالة: أي وصف الوضعية التواصلية وشروط نجاح التواصل"[4].

تلتقـــي هـــذه التعـــريفات في جوانب أساسية تعتبر بمثابة الركائز المهمة في التداولـــية، فهي جميعها تؤكد على أن التداولية تتجاوز الجوانب اللفظية والتركيبية والدلالية للغة، لتهتم بالجانب التواصلي، وهو الذي يستدعي المرور من الدلالة التي

---

(1) آن روبـــول، وجاك موشلار، التداولية اليوم، ترجمة: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، منشورات المنظمة العربية للترجمة، ص 29.

(2) Martine Bracops; Introduction à la pragmatique; éd de bœck, 2005, p. 13.

(3) Ibid., p. 13.

(4) Ibid., p. 28.

تقدمها الجملة مباشرة إلى الدلالة التي يمكن استنتاجها من خلال السياق الذي يربط المتكلم بالمستمع. كما أن السياق هنا يتجاوز معناه اللساني الضيق الذي ينحصر في السياق اللغوي، ليشمل سياق التواصل بصفة عامة فيتجاوز ما هو لساني إلى ما هو خارج لساني؛ وقد يتضمن الخارج لساني ما هو اجتماعي أو نفسي في العملية التواصلية.

ما يمكن استخلاصه من هذه التعريفات هو أن التداولية هي نظرية دلالية تدمج إلى جانب الشفرة اللسانية المظاهر المرتبطة بالتلفظ نفسه معتبرة أن الملفوظ هو ناتج عن اجتماع المعلومات اللغوية المنتمية إلى المكونات اللسانية للجملة (المورفيمات، الوحدات المعجمية)، والمعلومات الخارج لسانية التي تنتمي إلى المكونات التداولية أو البلاغية المندمجة في الدلالة[1].

يتبين من خلال التعريفات أن التداوليين حاولوا وضع تصور للحقل الذي ستهتم به التداولية، غير أنهم تركوا الحقل منفتحا من كل الاتجاهات. فالانتقال من المستوى الدلالي إلى المستوى التواصلي استدعى مفهوم السياق الذي يتضمن مظاهر متعددة، ترتبط باللغة أولا، وبالجانب النفسي ثانيا سواء بالنسبة للمتكلم أو المستمع، ليصل إلى الجانب الاجتماعي وما يطرحه من مساهمة في بناء الدلالة في الملفوظ التواصلي. وقد ساهم هذا الانفتاح في ظهور اتجاهات متعددة في مجال التداولية، اهتم كل اتجاه بجانب من جوانب العملية التواصلية، فبدت هذه الاتجاهات متقاربة في الموضوع الذي تعالجه، ومتباينة قليلا أو كثيرا في طريقة المعالجة وصياغة أدوات المقاربة الإجرائية. وهي في علاقتها مع بعضها تقدم للمهتم صورة عامة حول السيرورة التطورية التي عرفتها التداولية منذ إعلان شارل موريس عن نشأة هذا العلم. وقد حصرت مارتين براكوب Martine Bracops هذه السيرورة التطورية في أربعة اتجاهات امتدت على مدى ستين عاما تقريبا[2]، هي كالآتي:

- 1930-1940: التداولية الراديكالية الشكلانية، ويتزعمها كل من بورس وموريس.

---

(1) Ibid., p. 28.
(2) Ibid., p. 28.

- 1940-1980: التداولية الفلسفية أو فلسفة اللغة، ومن روادها أوستين وسورل وغرايس.
- 1980-1990: وهي مرحلة عرفت اتجاهين متوازيين:

أ. التداولية المعرفية، وتزعمها كل من ويلسون وسبيربر.

ب. التداولية المندمجة، وقاد هذا الاتجاه الفرنسي أوسويلد دوكرو.

قدمت هذه المسارات الأربعة مجموعة من المفاهيم والأدوات الإجرائية لمقاربة التلفظ أو الخطاب، وكانت كلها تعمل على تجاوز الدلالة اللسانية إلى الدلالة التداولية. وكل اتجاه عمل على وضع الفرضيات أو المسلمات الأساسية التي ينطلق منها للمرور مما هو لساني إلى ما هو تداولي. ومن هذه الاتجاهات من حاول تجاوز خطاب الحياة اليومية الذي يعتبر الموضوع الأساسي للتداولية لوضع تصور تداولي لمقاربة الأعمال التخييلية. ولن نتتبع هنا هذا المسار التطوري بالتفصيل، لأن هدفنا ليس هو التطورات التي حققتها التداولية، إنما هو معرفة أهم الأسس المنهجية التي اعتمدتها في مقاربة الخطاب، خصوصا خطاب التخييل، لنرى مدى وجود إمكانية المرور مما هو سردي إلى ما هو تداولي على المستوى المنهجي التحليلي.

## 3- 1- 2- رهانات التداولية:

اصطدم علم الدلالة اللساني بمجموعة من الإكراهات المتعلقة بتفسير وظائف مجموعة من الموجهات déictiques المرتبطة بالمتحاورين كضمائر المتكلم والمخاطب (أنا - أنت)، وظروف الزمان والمكان (الآن، هنا، هناك..)، وهي الموجهات التي تحيل على مكونات التلفظ ووضعيته، وقد أكد بنفنست أن هذه الموجهات لا يقتصر دورها على الاقتصاد، بل يمكنها أن تدل على الدور الذي يأخذه المتكلمون داخل الملفوظ، وهو ما يمثل في نظره نوعا من المرونة في جوهر اللغة الإنسانية، وقدرتها على الكشف عن الذاتية، إلى جانب ترهين التلفظ على المستويين الزماني والمكاني. وبناء على هذه الموجهات راهنت التداولية على أن الجمل في تأسيسها للدلالة قد تتجاوز الدلالة الملموسة المباشرة التي تقدمها الوحدات المعجمية في علاقتها مع بعضها إلى دلالات ضمنية يمكن التوصل إليها من خلال الاستلزامات الحوارية، وتقتضي استحضار مكونات أخرى سياقية داخلية وخارجية تمكن المتلقي

مـــن الانـــتقال من الدلالة الأولى (المباشرة) إلى الدلالة الثانية (الضمنية). فالكلام بالنسبة إليها أكبر من أن يكون مجرد تطبيق خالص للسان، فهو يوظف شفرات غير لسانية إلى جانب الشفرات اللسانية ليولد شفرات جديدة تربط الجسور بين الدلالة المجردة في الملفوظ الملموس بالدلالة الضمنية التي ترتبط بسياق التلفظ. وبالتالي فهو يتوفر على موقع في سياق محدد بمعطيات زمكانية وسوسيو تاريخية؛ والتداولية تعمل من أجل الكشف عن طريقة تفاعل هذه المعطيات مع النسق اللغوي.

ومن أجل ذلك وضعت الدراسات التداولية في اعتبارها المنهجي مجموعة من المفاهيم اعتبرتها مركزية في مقاربة الملفوظ أهمها: السياق، أفعال الكلام، الاستلزام الحـــواري، الملاءمة، الاستدلال، الموجهات، الاقتضاء، المقصدية... وهي كلها في نظـــر التداولـــيين مكونات أساسية تساهم في وصف بناء الملفوظ الذي يحاول أن يؤســـس علاقـــة مع العالم المحيط به، من خلال التعبير عن قضايا أو أحاسيس تجاه العالم الخارجي.

تتأســـس الدلالة التداولية سواء لدى المرسل أو المتلقي انطلاقا من مجموعة من الكفايات التي يفترض توفرها في كل مستعمل للغة، وتتمثل في مجموعة منظمة من المعلومات والميكانـــزمات السيكولوجية التي يمكن تصنيفها كالآتي:

- الكفايـــة اللغـــوية: وتعني هذه الكفاية التمكن من لغة معينة ونطقها ومعرفة معجمها وبنياتها التركيبية.
- الكفاية الموسوعية: وتشير إلى المعارف المختلفة القائمة على التنويع اللامتناهي للموضوعات التي يمكن أن نتحدث عنها في لغة معينة.
- الكفاية المنطقية: وترتبط بالقدرة على القيام باستدلالات منطقية لفهم وإدراك معطيات فكرة معينة، والقدرة على ربط الأفكار فيما بينها.
- الكفايـــة البلاغية التداولية: وتتعلق بالميكانـــزمات التي يوظفها مستعمل اللغة من أجل بلوغ المقصد الذي يرمي إليه.

وتـــتوحد كلـــها في كفاية عامة تؤطر العلاقة التي تربط المرسل بالمتلقي وهي الكفاية التواصلية.

تـــراهن التداولـــية إذن على مقاربة المعنى أو الدلالة، ولكن ليس المعنى الحرفي المباشـــر الـــذي تؤسسه الجملة من خلال العلاقات التركيبية والدلالة التي تقدمها

الألفـــاظ، بـــل تراهن على المعنى الضمني أو الرسالة المتضمنة التي يتضمنها الملفوظ دون أن يشير إليها مباشرة، وهي رسالة يؤسسها المتكلم عبر نسقية خاصة يتوحد فـــيها اللـــساني بالـــسياقي والاجتماعي، ويدركها المتلقي عبر نسقية شبيهة نسبيا بنـــسقية المـــتكلم وتـــشكل هذا الميثاق التواصلي بينهما والذي يساهم في عملية التواصل ونجاحها.

## 3- 1- 3- التداولية، تصورات ومفاهيم:

يتضح من خلال المسار التطوري المشار إليه أعلاه أن المقاربة التداولية قامت علـــى الأسس التي وضعتها فلسفة اللغة مع كل من أوستين وسيرل وغرايس. فقد عمل كل واحد من جهته على تقديم رؤية لمقاربة اللغة في إنجازاتها المختلفة.

ابـــتدأ أوســـتين أولا بالتمييز بين الجمل الوصفية والجمل الإنشائية معتبرا أن الأولى تخضع لحكم الصدق والكذب بينما الثانية ترتبط بالنجاح والإخفاق. غير أن أوســـتين ســـرعان ما سيكشف لا جدوى هذا التقسيم، وينـــزاح عنه نسبيا من خلال التأكيد على أن "كل جملة تامة مستعملة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقـــل، ويميز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية: العمل الأول هو العمل القولي، وهو الذي يتحقق ما إن نتلفظ بشيء ما؛ أما الثاني، فهو العمل المتضمن في القول، وهو الذي يتحقق بقولنا شيئا ما؛ وأما الثالث فهو عمل التأثير بالقول، وهو الذي يـــتحقق نتـــيجة قولـــنا شيئا ما"[1]. ومن ثم فإن كل جملة عند التلفظ بها في نظر أوســـتين توافق على الأقل إنجاز عمل قولي وعمل متضمن في القول، وأحيانا توافق القيام بعمل تأثير القول[2].

هـــذه الأرضـــية الفلسفية التي وضعها أوستين ستكون منطلق أحد أتباعه في الاتجاه "جون سيرل"، الذي عمل على تطويرها من خلال الاقتصار من جهة على العملين الأولين في الجملة "عمل القول، وعمل متضمن القول"، مركزا على الجانب الثاني من العمل. كما عمل من جهة ثانية على تحديد شروط نجاح العمل المتضمن في القول، ولخصها في خمسة شروط أساسية هي:

---

(1) Martine Bracops; Introduction à la pragmatique.

(2) التداولية اليوم، ص 32-33.

أ. القواعد التحضيرية: المرتبطة بمقام التواصل.
ب. قاعدة المحتوى القضوي: الذي يقتضي إسناد عمل ينجز في المستقبل.
ج. القواعد الأولية: المرتبطة بالاعتقاد بالخلفية المنطلق منها.
د. قاعدة الصدق: أن يكون المتكلم صادقا ونـــزيها في ما يقوله.
هـــ – القاعدة الجوهرية: تحدد نوع التعهد الذي قدمه المتكلم.
و. قـــواعد المقـــصد والمواضعة: وتحدد مقاصد المتكلم والكيفية التي ينفذ بها هذه المقاصد بفضل المواضعات اللغوية[1].

تـــأتي مفاهـــيم غـــرايس مكملة للمقاربة الفلسفية للغة. فقد عوض غرايس مفهومي عمل القول، وعمل متضمن القول، بمفهومين جديدين يبدوان أكثر إيحاء وتركيزا وهما: الدلالة الطبيعية والدلالة غير الطبيعية، معتبرا أن الدلالة غير الطبيعية تقوم على التأويل وتتأسس على الاستدلال؛ ومن خلالها "ينوي المتكلم وهو يتلفظ بجملته إيقاع التأثير في مخاطبه، بفضل فهم هذا المخاطب لنيته"[2]، ويظهر أن الدلالة غير الطبيعية ترتبط بإرادة القول "vouloir dire" الذي يقصده المتكلم. ويخلص غرايس مـــن خلال هذا التمييز إلى تمييز آخر، حيث يقابل بين الجملة والقول، فالأولى هي سلـــسلة الكلمـــات التي يمكن لأي شخص أن يتلفظ بها في ملابسات مختلفة، ولا تتغير بتغير الملابسات، بينما الثاني "القول" هو حاصل التلفظ بجملة وهو يتغير بتغير الملابسات والقائلين"[3].

ركز غرايس في مقاربته على الدلالة غير الطبيعية باعتبارها تمثل الجانب المهم من المحادثة، لأنها دلالة غير تواضعية على عكس الدلالة الطبيعية التي تحتفظ بجانبها اللـــساني التواضعي. ولهذا فمنطق المحادثة بين المتحاورين يقتضي ضرورة عمل كل واحـــد منهما من أجل تمكين الآخر من فهم مقصوده ونيته، وهذا المنطق في نظر غرايس يقوم على مبدأين أساسين: مبدأ التعاون، ومبدأ الاستلزام الخطابـــي. يقوم المـــبدأ الأول علـــى أربـــع قواعد أساسية، يفترض أن يحترمها المتخاطبون لإنجاح التواصـــل بينهما، وهي: قاعدة الكم، قاعدة الكيف، قاعدة النوع، قاعدة العلاقة.

---

(1) نفسه، ص 32.
(2) نفسه، ص 34.
(3) نفسه، ص 53.

وسنعود للتفصيل في خصوصيات هذه القواعد عند الحاجة. أما الاستلزام الخطابي فيحدده غرايس من خلال التمييز في القول الواحد بين ما قيل، وما تم نقله، وما تم تبليغه. فالدلالة هي ما قيل، والاستلزام الخطابي هو ما تم تبليغه[1]، وتتولد الاستلزامات الخطابية عن طريق الاستدلال كعملية منطقية تنطلق من عدد معين من المعلومات المعروفة لتتولد منها نتيجة أو نتائج جديدة[2].

أعطت هذه الأرضية الفلسفية نفسا جديدا لمقاربة اللغة، وحاولت أن تخلصها من بوتقة الانغلاق الوصفي الذي عرفته مع الدراسات اللسانية البنيوية. وقد كان لهذا الإرث الفلسفي دور فعال في التطور السريع الذي ستعرفه التداولية في العقدين الأخيرين من القرن العشرين. ويمكن القول إن هذا التطور سار في اتجاهين مغايرين:

- اتجاه نلمس فيه التأثير الفلسفي في مقاربته، لكنه حاول أن يبقى وفيا للمقاربة اللسانية، وهو الذي مثلته التداولية الفرنسية بزعامة أوسوالد دوكرو، وسميت بالتداولية المندمجة، وهي مقاربة ترميزية بالدرجة الأولى.
- اتجاه استفاد من العلوم المعرفية الحديثة وما حققته من تطورات، فاستفاد منها في إقامة ما عرف لاحقا بالتداولية المعرفية، وقد تبلور من خلال أعمال سبيربر وويلسن، وتحاول أن تعيد الاعتبار للعلاقة بين اللغة ومستعمليها من خلال جعلها واحدة من النسق الواسع لمعالجة المعلومة[3].

انطلق دوكرو من مفهوم الاستلزام، وميز فيه بين الاستلزام الذي يرتكز على مضمون الملفوظ، وذلك الذي يرتكز على الفعل التلفظي. فالأول يرتبط بوضعية إثارة الانتباه إلى شيء لا نريد الإشارة إليه مباشرة، فنعرض عوضه أشياء أخرى قد تكون أسبابا له أو نتائج مترتبة عليه[4]. أما الثاني فهو يتعلق بمتضمن الخطاب. وقد كان مفهوم الاستلزام عند دوكرو دافعا إلى استحضار مفهوم آخر اعتبره ضروريا في التواصل بين المتخاطبين وهو الاقتضاء، présupposition، ويعني به المضمون الذي تريد الجملة أن تبلغه بكيفية غير صريحة. ويناقش دوكرو هذا المفهوم من زاويتين: حقيقته أو صدقيته؛ وتحققه. بالنسبة للنقطة الأولى يؤكد على ضرورة

---

(1) نفسه، ص 55.
(2) نفسه، ص 56.
(3) نفسه، ص 62.
(4) In Introduction à la pragmatique, p. 28.

الاعـــتقاد المشترك بين المتخاطبين في صدقية الاقتضاء ووجوده. فالمتكلم يعتقد في الخـــبر الـــذي يمرره، وفي الوقت ذاته يفترض اعتقاد مخاطبه في الشيء الذي يخبره به[1].

لا يخـــتلف مفهوم الاقتضاء كثيرا عما قدمه غرايس في حديثه عن الدلالة غير الطبيعـــية، أو ما أشار إليه سيرل وأوستين في عمل متضمن القول. فكلها مفاهيم تنقلـــنا مـــن المـــستوى اللساني الأول للدلالة إلى المستوى الثاني الذي يرتكز على مقومات في غالبها غير لغوية. وقد توقف دوكرو عند هذا التعالق بين الدلالتين من خـــلال اعتـــبار أن الدلالة الحرفية ترتبط بالمكون اللساني والدلالة الضمنية ترتبط بالمكون البلاغي الذي ينقلنا إلى دلالة في إطار سياق معين[2].

تعمـــل التداولية المعرفية انطلاقا من استفادتها من التطورات التي حققتها هذه العلوم على إعادة تأسيس تصور تداولي للغة أكثر تقدما يأخذ بعين الاعتبار الجانب الاســـتدلالي فيها، فقد أكد سبيربر وويلسن على أن العمليات التداولية هي قطعا ليـــست من خصائص اللغة، بل هي من خصائص النظام المركزي. فتأويل الأقوال بالنسبة إليهما يوافق نوعين مختلفين من العمليات: ترميزي لغوي/استدلالي تداولي. وقـــد كـــان هذا التصور حافزا لهما على تأسيس مجموعة من المفاهيم التي اعتبراها ضرورية في المقاربة التداولية. ويمكن الوقوف عند المفاهيم التالية:

### أ – مفهوم السياق:

يؤكد سبيربر وويلسن أن "السياق ليس أمرا معطى دفعة واحدة، إنما يتشكل قـــولا إثـــر قول"[3]. فالمعلومة التي نحصل عليها تنتظم ضمن ثلاثة مداخل أساسية يكمل بعضها بعضا:

- مدخل منطقي: وهو المتعلق بالمعلومات والعلاقات المنطقية التي يقيمها المفهوم مع مفاهيم أخرى (تناقض، استلزام..).
- مـــدخل موســـوعي: ويتعلق بمجمل المعلومات المتوافرة لدينا عن الأشياء التي توافق المفهوم.

---

(1) O. Ducrot; Dire et ne pas dire, p. 7.
(2) Ibid., pp. 50-51.
(3) Ibid., pp. 113-114.

- مـــدخل معجمـــي: وهو يرتبط بالمقابل أو المقابلات للمفهوم في لغة أو لغات طبيعية[1].

السياق بهذا المفهوم يتضمن كل ما هو خارج لساني، والذي يمكنه أن يشكل جـــزءا مـــن الوضعية التلفظية. فهو يضم عناصر الإطار الزمكاني للتلفظ، وطبيعة المتحاورين وجنسهم، إلى جانب لحظة التلفظ. هذه المكونات الخارجية هي الكفيلة بأن تنقل المتخاطبين من التعامل مع المستوى اللغوي إلى التأويل التداولي.

**ب - مفهوم المقصدية:**

يتحدد هذا المفهوم من خلال الدلالة غير الطبيعية التي يشير إليها غرايس. فهي دلالة تقوم على مقصدية مزدوجة: مقصدية إخبارية، وهي ما يقصد إليه المتكلم من حمـــل مخاطبه على معرفة معلومة معينة. ومقصدية تواصلية: وتتعلق بحمل المخاطب على معرفة مقصده الإخباري.

يقتـــضي المـــرور من المقصدية الأولى إلى المقصدية الثانية التحول من الدلالة اللسانية للجملة إلى الدلالة التداولية للقول، التي ترتبط بالدلالة غير الطبيعية. في هذا المـــستوى يقتـــرح ســـبيربر وويلسن مفهوما تواصليا آخر هو التواصل الإشاري الاســـتدلالي[2]، ويعـــرفانه بقـــولهما: "يوجد تواصل إشاري استدلالي عندما يبلغ شـــخص مـــا شخصا آخر، بواسطة عمل معين، مقصده المتمثل في إبلاغه معلومة ما"[3].

تـــتوحد هذه العناصر جميعا لتشكل تصورا نظريا خاصا بالعالمين أطلقا عليه نظـــرية الملاءمـــة Théorie de pertinence. والملاءمة عندهم هي "جهد ضروري لبـــناء السياق، واستنتاج يتوصل إليه بواسطة العملية الاستدلالية. وقد قدمت آن روبول تعريفا لملاءمة التواصل الإشاري الاستدلالي من خلال مقومين:

- كلمـــا تطلب عمل التواصل الإشاري الاستدلالي جهدا أقل في تأويله ازدادت ملاءمته.

---

(1) التداولية اليوم، ص 77.
(2) نفسه، ص 79.
(3) نفسه، ص 80.

- كلمـــا كانـــت لعمـــل التواصـــل الإشاري الاستدلالي نتائج أكثر ازدادت ملاءمـــته[1]. كمـــا تعتبر مبدأ تأويليا يستعمله المخاطب بغير وعي أثناء عملية التأويل.

يهـــدف العمل الاستدلالي إلى تحقيق معرفة إضافية لدى المخاطب، والمتكلم وهـــو يبني خطابه يضع في نيته طبيعة هذه المعرفة التي يريد تمريرها لمخاطبه. ويمكن أن تحقق العملية الاستدلالية واحدة من النتائج الثلاث الآتية:

- إضـــافة معلـــومة تمـــثل استنتاجا للعملية الاستدلالية، ويطلقان على مثل هذه المعلومات: الاستلزامات السياقية.
- التغيير في قوة الاقتناع باعتقاد ما.
- إلغاء معلومة قديمة تناقضها معلومة جديدة أكثر إقناعا[2].

نخلـــص إلى القـــول مـــن خلال هذه الجولة عبر مجموعة من الاتجاهات من الدراســـات التداولية أن هذا العلم اهتم بجوانب خاصة من الاستعمالات اللغوية، ويمكـــن القول بأنه انطلق من حيث وقفت اللسانيات البنيوية في مسارها الوصفي للغـــة. وعلى الرغم من هذا التعدد في الاتجاهات التداولية فإنها متداخلة مع بعضها البعض، فكل اتجاه جاء ليكمل السابق عليه ويسد النواقص التي اعترضت المنهج في بدايـــته؛ وهذا التداخل هو ما جعل بعض المشتغلين بالتداولية خلال العقود الأخيرة يعتـــبرون أن نظـــرية الملاءمة لدى سبيربر وويلسن تمثل النموذج الأكثر تكاملا في المقاربة، فتبنوا النظرية وحاولوا تطبيقها على مجموعة من البناءات اللغوية خصوصا في الخطاب اليومي، ليبرزوا مدى قابليتها الإجرائية في التحليل.

إن السؤال الذي طرح نفسه بإلحاح ونحن ننتقل عبر هذه الاتجاهات التداولية، وما قدمته من مقاربات تطبيقية هو: ما مدى قدرة التداولية على استيعاب الخطاب الأدبـــي أو التخييلي بصفة عامة؟ خصوصا وأن جل الأمثلة التي تأسست عليها مفاهيمها ترتبط باللغة العادية وما تتضمنه من انـــزياحات في التعبير، والطريقة الـــتي يتلقـــى بهـــا المخاطب هذه الأقوال ويتعرف على مقصدياتها أو دلالاتها غير الطبيعية.

---

(1) نفسه، ص 85.

(2) نفسه، ص 85-86.

استحضرت التداولية التخييل في بعض الأحيان، ومن أجل تمييز خطاب التخييل كان التداوليون يقارنون بين التخييل والقول الكاذب، كما يقارنون بينه وبين القول الجاد. فمن خلال المقارنة الأولى ميزوا التخييل عن الكذب باعتبار أن المتكلم في الأول ليست له نية تضليل المخاطب في حين أن المتكلم في الخطاب الكاذب له نية تضليلية. وبالتالي فإن الكيانات التخييلية رغم عدم وجودها فهي توحد الاعتقاد بين المتحاورين في خطاب التخييل. وفي المقارنة الثانية يعتبرون أن القول الجاد يحتمل الصدق والكذب، لكن الخطاب التخييلي لا يمكن قياسه من هذه الزاوية، فهو شبيه بالاستعارة باعتبارهما خطابين غير حرفيين، ويمرران معرفة خاصة للمخاطب تتعلق بالكون أو المحيط الذي يستقبل فيه الخطاب.

سنتوقف بتفصيل أكثر عند تصور التداولية للتخييل في الفصل اللاحق، فهو الفصل الذي خصصناه لمفهوم التخييل باعتباره موضوع هذه الدراسة من خلال مقاربة مجموعة من النصوص السردية العربية التراثية.

## 3- 3- جسر العبور من السردية إلى التداولية:

كما سبقت الإشارة انطلقت السرديات كفرع من فروع الشعرية العامة من اللسانيات البنيوية، وكانت تهدف إلى وضع أسس لعلم أدبي جديد يهتم بالبنيات النصية؛ وبالتالي فإن السرديات اقتصرت في مقاربتها على الجانب الشكلي من العمل الأدبي "الخطاب". وعلى الرغم من المحاولات اللاحقة التي سعت إلى توسيع السرديات فإن الوصفية بقيت هي السمة الغالبة عليها. ولهذا يمكن القول بأن الشعرية بصفة عامة والسرديات خاصة كانت هي الوجه الثاني للسانيات البنيوية. فهذه الأخيرة اهتمت بوصف اللغة العامة في مستوياتها المختلفة: الصوتية، الصرفية، المعجمية، والتركيبية؛ وفي المستوى الدلالي واجهت مجموعة من الإكراهات والمعيقات التي تركت علم الدلالة غير قادر على تطوير أدواته؛ وهي الإكراهات التي ألحت على ظهور التداولية كعلم يهتم بالدلالة في مستواها التواصلي بين المتحاورين، وتدعم مقاربتها بالمرور من الدلالة الترميزية الشفرية إلى الدلالة التداولية السياقية. وبنفس المقاربة تقريبا اشتغلت السرديات ووضعت إطارا عاما لمقاربتها من خلال تحديد مستويات العمل السردي: الموفولوجي،

التركيبـــــي والـــدلالي، وأهملت المستوى الصوتي لأنه يرتبط بالشعر أكثر من ارتباطه بالسرد.

من خلال هذه المستويات الثلاثة كان الجانب التركيبـــي هو الحاضر بقوة في الدراســـات الـــسردية. فعلـــى الرغم من وضع المورفولوجي (القصة) إلى جانب التركيبـــــي (الـــسرد) في الدراسات المؤسسة التي تضمنها العدد الثامن من مجلة "تواصـــل"، فإن التركيبـــي كان هو الأكثر حضورا خصوصا بعد صدور كتاب جنـــيت "خطـــاب المحكي". وبالتالي فإن السرديات حددت موضوعها في الجانب الشكلي دون الدلالي.

إن الانفتاح النسبـــي الذي حققته السرديات مع ما عرف بالشعرية الجديدة الـــتي وضع أسسها ميخائيل باختين أشرت بشكل قوي على إمكانية تطور المنهج الـــسردي، وقدرتـــه علـــى استيعاب ما هو دلالي، غير أن المنظور الباختيني واجه إكراهين أساسيين:

أ. إكـــراه يرتبط بطموح باختين في الانفتاح على ما أسماه بالعبر – لسانية، وهو علـــم لم يكن قد وضعت له أسس بعد، وكما سبقت الإشارة فهذا العلم هو الذي سيعرف بالتداولية لاحقا. ولهذا بقي انفتاح باختين محدود الجوانب وهو يـــتحدث عـــن التعدد اللغوي، وسياقاته الاجتماعية، وظاهرة الأسلبة وتعدد الأصوات. وهي كلها مكونات تحمل في جوهرها قواعد مقاربة دلالية متميزة.

ب. انـــــزياح الرؤية الباختينية في اتجاه الخلفية الماركسية التي كان يتبناها آنذاك، وبالـــتالي عـــوض أن يتحدث عن تفاعل المكونات المؤسسة للدلالة السياقية، انبرى نحو وصف اللغات المتداخلة في النص الواحد وربطها برؤى إيديولوجية وطبقـــية، ومن ثم ربط التعدد على المستوى اللغوي والنصي بالتعدد والصراع الطبقي على المستوى الاجتماعي. فكانت المقاربة الدلالية ذاتها مقاربة وصفية شكلية تربط بين اللغة والمجتمع.

إن طموح الانفتاح السردي دائما يتجه نحو المقاربة الدلالية. والسرديات بكل مـــا حققته خلال نصف قرن من الزمن تقريبا وهي تجرب الأدوات وتطور الرؤى وضـــعت بين يدي الباحث مجموعة من المعطيات الوصفية تمكنه من تفكيك النص وإعـــادة تركيبه بصورة تسمح له بقراءة ما وراء النظام التشفيري الترميزي، وهذه

القـــراءة الماورائية تحتاج إلى أدوات ومفاهيم تكون قادرة على استيعاب ما تحقق في التحلـــيل الوصفي واستغلاله كفرضيات لقراءة جديدة تكشف عن الدلالة السياقية للـــنص ومقاصده. ويبدو لي أن نتائج التحليل السردي الوصفي كفيلة بأن تشكل جـــسورا متيـــنة للعبور مما هو شفري ترميزي إلى ما هو تداولي استدلالي، وذلك باستغلال مجموعة من الأدوات والمفاهيم التي تعتبرها الدراسات التداولية أساسية في هـــذا المجال دون أن نحصر أنفسنا في الاتجاه المعرفي أو الفلسفي أو الاندماجي. فهي اتجاهات تداولية أعتبرها متكاملة مع بعضها، كل اتجاه منها يحيلك على الاتجاهات الأخـــرى. وسنجعل من المفاهيم التداولية المشار إليها سابقا – السياق، المقصدية، الدلالـــة الطبيعية والدلالة غير الطبيعية، الاستلزام الحواري، الاستدلال – إضافة إلى التركيـــز على الوضع التواصلي بين المرسل والمتلقي والموجهات الخطابية، الأركان الأساسية التي سيقوم عليها التحليل للمرور من السردي إلى التداولي.

## 4- إضاءة ضرورية:

تفـــرض طبـــيعة المـــتن الذي نشتغل به مجموعة من الاعتبارات الخاصة أثناء التحلـــيل التداولي. فكما هو معلوم اهتمت التداولية في غالب الأحيان وهي تضع أســـس مـــنهجها بلغة الحياة اليومية العادية، وكانت ترتكز على وضعية التواصل الراهن الذي يربط بين المتحاورين، ومن خلاله عمل التداوليون على وضع مجموعة مـــن الشروط لنجاح التواصل بين المتحاورين وتحقيق مقاصده. ومن ثم فإن المرور مـــن الجانـــب الشفري إلى الجانب الإشاري كان يتأسس على طبيعة الاستعارات العـــرفية الـــتي تزخر بها لغة الحياة اليومية. فوحدة الشفرة والسياق بمقوماته اللغوية والخارجية كانت تساعد على وضع فرضيات الاستدلال، وبلوغ الدلالة التداولية.

وفي مقابل هذا التحليل الموسع لطبيعة لغة الحياة اليومية نلاحظ غيابا شبه تام للخطاب الأدبـــي أو التخييل بصفة عامة. فعلى الرغم من حضور مفهوم التخييل بـــين الحـــين والآخـــر لدى بعض التداوليين، وتحديد بعض خصوصياته التواصلية والإخـــبارية، فـــإن المقاربة التطبيقية لنصوص تخييلية تبقى غائبة في الغالب، اللهم بعـــض المقاطع الاستشهادية الجزئية التي كانت تستحضر بين الحين والآخر للبرهنة على فرضية معينة في التخييل كما هو الحال عند روبول مثلا.

يتميـــز المتن – موضوع الدراسة بخصوصيات تفرض علينا الحذر في التعامل معـــه، خـــصوصا ونحن نراهن على أدوات منهجية تشكلت ضمن رؤية خاصة، وأظهرت نجاعتها في مقاربة خطاب الحياة اليومية، فهل يمكن أن تحقق النجاح نفسه وهي تقارب نصوصا عالمة لها بنيتها الخاصة، وتبنينت في سياق مغاير لسياق التلقي بمقـــصدية مـــضبوطة ضمنت للنص استمرارية تواصلية على مدى قرون من الزمن دون أن يفقد قوته التأثيرية في المتلقي (ين) المتعدد (ين).

هـــناك مجموعة من الإكراهات التي يجب أن نضعها نصب أعيننا ونحن نتعامل مـــع المتن الذي نشتغل به بأدوات منهجية تتوخى تجاوز الترميزي إلى الاستدلالي، ويمكن أن نسطر هذه الإكراهات كالتالي:

أ. طبيعة المتن: الخاصية المشتركة بين النصوص التي سنشتغل بها هو تنصيصها على واقعيـــتها أو صدقية وقائعها. فأسامة بن منقذ في كتاب "الاعتبار"، يؤشر على أنـــه يدون حياته الخاصة من خلال رحلاته المتتالية إلى مصر والشام. ولم يكن الـــتدوين بقصد الإخبار بحياته فقط، بل يحاول أن يمرر عبر مسار حياته معرفة خاصـــة للمتلقي، وهي معرفة منفتحة قد تختلف من متلق إلى آخر ومن سياق ثقـــافي إلى ســـياق آخـــر. والسيرة النبوية في تجلياتها المختلفة، ابتداء من ابن إسحاق، ومرورا بابن هشام، والتعالقات النصية اللاحقة لهما، تؤشر على حياة شخـــصية تاريخية كانت لها خصوصياتها؛ والإخبار عنها له مقصدياته الخاصة الـــتي تنكشف عبر القراءات المتعددة لهذه السيرة. صدقية الوقائع في هذا النص أيـــضا تفـــرض وحـــدة الاعتقاد بين المرسل والمتلقي حتى يحقق النص نجاحه التواصـــلي في سياقات التلقي المختلفة. والشيء نفسه يقال عن خطاب الرحلة "الرحلة العياشية". فواقعية الأحداث، وتحقق الرحلة فعليا، يجعل جانبا مهما من الـــنص ذا طبيعة توثيقية، غير أن هذا التوثيق تتخلله لحظات خاصة يطمح فيها المرسل إلى تمرير معرفة خاصة للمتلقي، ومسؤولية هذا الأخير هي الكشف عن هذه المعرفة. إنها معرفة منفتحة تعاد بنينتها حسب سياقات التلقي المختلفة.

المتن إذن يوحي بصدقية وقائعه، لكن هذه الصدقية لا تنفي عنه طابع التخييلية الـــتي اشتغلت بفاعلية خاصة وهي تعيد بناء أحداث الواقع. وهذا التفاعل بين الوقائـــع الحقيقية والاشتغال التخييلي هو ما يمنح لهذه النصوص جمالية خاصة

علـــى مـــستوى البناء، كما يمنحها دلالة منفتحة قابلة للتحول بتحول الأزمنة وســـياقات التلقـــي. وهدفـــنا نحن في هذه الدراسة هو تجلية هذا التفاعل بين الوقائعي والتخييلي، وطرق اشتغالهما في بناء الدلالة التداولية للخطاب.

ب. ارتـــبط الـــسياق في التداولـــية بالوضـــع التواصلي العام الذي يربط المتلفظ بالمخاطـــب، وغالبا ما يكون سياقا موحدا لراهنية التواصل في الخطاب اليومي كما تبرزه الشواهد المعتمدة في تحليلاتهم؛ وهو الشرط الذي لا يتحقق في تلقي النـــصوص التي نشتغل بها. فسياق التلقي يختلف اختلافا تاما عن سياق التلفظ أو التألـــيف، وبالتالي فإن إعادة البناء من خلال التلقي ستكون رهينة بالمحيط السوسيو ثقافي الذي ستتم فيه، مع الأخذ بعين الاعتبار السياق العام للإرسال (التألـــيف)، وهـــو الـــسياق الذي سنحاول بناءه من خلال بعض الموجهات الخطابية التي تتضمنها النصوص.

وعـــندما نـــتحدث عن السيرة النبوية فإن السياق سيصبح متعددا سواء على مستوى الإرسال أو التلقي. فالترهينات المختلفة والمتتالية للسيرة كانت تساهم في كـــل مرة في إبراز المتغيرات التي تنجلي بين نص وآخر إلى جانب الثوابت التي استمرت في كل التجليات.

ج. المـــسافة الفاصلة بين سياق الإرسال وسياق التلقي تفرض علينا تأسيس سياق الإرســـال (التأليف)، ومقصديات الرسالة انطلاقا من الموجهات الداخلية التي يتـــضمنها الخطاب. وهي مجموعة من الموجهات اللفظية التي تطفو بين الحين والآخر لتعبر عن موقف من قضية أو الغاية من استحضار حدث دون آخر.

د. الانتقائـــية التي تميز مثل هذه التصانيف تمثل في نظرنا موجها أساسيا لتخييلية هذه النصوص، ولهذا سنعتبرها إحدى المكونات السياقية العامة التي تساهم في بناء الدلالة التداولية في مثل هذه الخطابات.

# الفصل الثاني

# حول المفهوم: التخييل

# حول المفهوم: التخييل

## 0- تأطير

التخييل la fiction مكون متجذر في التاريخ الإنساني، ونظرا لاتساع تداوله، فـــإن العديد من الدراسات أصبحت تتعامل معه باعتباره "معطى جاهزا" لا يحتاج لأي تعـــريف أو تحديد. والغريب في الأمر هو أن أي دارس تواجهه بالسؤال: ما التخييل؟ يجد نفسه عاجزا أو مرتبكا في إعطاء تعريف مضبوط ودقيق. وليس هذا العجز نابعا من الدارس ذاته، بل هو مرتبط بطبيعة المفهوم – التخييل – الذي اتسع اتـــساعا لا متناهـــيا، فاقتحم مجالات متعددة، واتخذ ضمن كل واحد منها تعريفا خاصا حسب طبيعة المادة التي يهتم بها التخصص، ولا يسعنا إلا أن نقول عنه بأنه "تعـــريف جزئي" أو "نسبـــي". فكل تعريف يقدم المفهوم من زاوية واحدة فقط دون الأخـــذ بعين الاعتبار الزوايا الأخرى التي قد يحيل عليها اللفظ وهو ينتقل من حقل معرفي إلى آخر. وبالتالي فإن السؤال: ما التخييل؟ يبقى إشكالا معقدا يصعب الحسم فيه وضبطه وتوحيده بين التصورات المعرفية المختلفة.

لن نسعى هنا إلى تتبع معضلات هذا الإشكال، ولن يكون طموحنا هو وضع الـــيد علـــى حـــل توفيقي – وقد يكون حلا تلفيقيا – لهذه الاتجاهات المختلفة. فطموح من هذا القبيل سرعان ما سيتفتت وهو يصطدم بواقع المفهوم. ولكن همنا هـــو محاولة وضع تصور أولي يكون منسجما وطبيعة النصوص الإبداعية التي نود الاشتغال بها حتى نحدد الأدوات اللازمة لمقاربة التخييل وطرق اشتغاله وسيرورات تطوره في مجموعة من النصوص العربية التراثية التي سنشير إليها في حينها.

يقتضي العمل من أجل وضع اليد على بعض ملامح المفهوم وخصوصياته في هـــذا الاتجـــاه أو ذاك الانطلاق من رؤية منهجية واضحة المعالم تتحرى المرور من موقـــع إلى آخر اعتمادا على أسس إبستيمولوجية متينة تضمن بالفعل التدرج من الأولي إلى الجوهري ومن البسيط إلى المركب، لنتمكن في الأخير من تكوين تصور

عام يساعدنا على ضبط الجوانب التي نريد أن نجعل منها أركانا أساسية لكل عمل تخييلي.

تبقى المفاهيم اللغوية والمعجمية من الأوليات البسيطة التي يمكن اعتمادها في تحديد بعض ملامح المفهوم، ولكن آثرنا عدم الوقوف عندها للأسباب التالية:

أ. المعاني المعجمية المتضمنة في المعاجم اللغوية هي محدودة جدا سواء في المعاجم العربية أو الأجنبية، بحيث لا تتجاوز مفهوم الخيال أو الطيف والشبيه، وفي الحد الأقصى تحسم في اعتباره المخالف للواقع. وهذه التعريفات البسيطة سنصادفها مباشرة في بعض المقاربات البلاغية والفلسفية، فلا داعي إذن لتكرارها.

ب. هناك دراسات متعددة – كتب ومقالات – أثارت هذا الجانب وتوقفت عنده بتفصيل كبير. وكل محاولة في هذا الاتجاه تبدو لي تكرارا لما قيل سابقا.

ج. الاتساع الدلالي الذي عرفه المفهوم في سيرورته التاريخية في المجالات المعرفية المختلفة يلزمنا بمتابعة تطوراته عبر هذه المجالات لتحديد ملامحه عوض ملاحقة الجوانب اللغوية للفظ فقط.

د. المعاجم المختصة في ذاتها لن تقدم لنا الشيء الكثير خصوصا وأنها تختزل المفاهيم انطلاقا من المجالات المعرفية التي استحضر فيها. وهي المجالات التي سنحاول تتبع بعضها هنا.

لهذه الأسباب مجتمعة ارتأينا القفز على المعاجم اللغوية وحتى المتخصصة لنتابع سيرورة المفهوم عبر حقب تاريخية مختلفة وضمن حقول معرفية استحضرته بقوة وعملت على رسم ملامح خاصة له.

## 1- التخييل في الدراسات القديمة:

### 1- 1- في الدراسات الفلسفية:

أثيرت قضية التخييل في الثقافات الإنسانية القديمة، ولعل الفكر الفلسفي اليوناني كان أول من أثار هذا الإشكال الإبداعي من خلال مفهوم "المحاكاة" الذي يعكس بصورة واضحة التجربة الإنسانية في علاقتها بالواقع. وقد جعل أرسطو من هذا المفهوم اللبنة الأساسية لمقاربة هذه التجربة وهي تعيد إنتاج الواقع بطرق مختلفة

تتفاوت سموا وانحطاطا. ويحضر الجانب التخييلي للمحاكاة عند أرسطو وهو يقارن بين الشعر والتاريخ:

"وظاهر ما قيل أيضا أن عمل الشاعر ليس رواية ما وقع، بل ما يجوز وقوعه، وما هو ممكن على مقتضى الحال أو بالضرورة، فإن المؤرخ والشاعر لا يختلفان بأن ما يرويانه منظوم أو منثور،...بل هما يختلفان بأن أحدهما يروي ما وقع، على حين أن الآخر يروي ما يجوز وقوعه"[1].

يضع أرسطو في هذا القول حدودا أولية بين الوقائعي والتخييلي فربط الأول بعمل المؤرخ الذي يهتم برواية ما وقع بالفعل، وربط الثاني بعمل الشاعر – ويبدو أن الشاعر هنا يحيل على ناظم الملاحم السردية– الذي يروي ما هو غير واقعي ولكن محتمل الوقوع.

بالانتقال إلى الفلسفة العربية الإسلامية يجد الدارس أمامه مجموعة من المواقف والآراء التي تلتقي أحيانا وتختلف أحيانا أخرى، وإن كانت جلها تستند على الفلسفة اليونانية خصوصا المواقف الأرسطية. والملاحظ أن ابن سينا أعطى للظاهرة حظها الوافر خصوصا في كتاب "النفس". وقبل الحديث عن ابن سينا سنتوقف عند بعد المعابر الأولية التي وردت لدى بعض المتقدمين من أعلام الفلسفة الإسلامية.

يشير الكندي (ت 260هـ) إلى مفهوم قريب من التخييل وهو "التوهم"، ويعرفه على الشكل التالي:

"التوهم أو الفانطاسيا قوة نفسانية ومدركة للصور الحسية مع غيبة طينتها، ويقال الفانطاسيا هي التخيل، وهو حضور الأشياء المحسوسة مع غيبة طينتها"[2].

يستحضر الكندي في هذا القول مفهومين أساسيين: التوهم والتخيل، ويجعل منهما المقابل للفظ اليوناني "phantasia"، وهو لفظ يشير إلى قوة ذهنية أو نفسية داخلية تمكن الفرد من إعادة استحضار الصور بعد غياب مرجعيتها المادية الواقعية. فالتخيل/التوهم هو إذن هذه الملكة الداخلية التي تقوم بإنتاج وإعادة إنتاج الصور، غير أن هذه الصور تبقى دائما مرتبطة بمرجعية واقعية، وهو ما يقابل المفاهيم

---

(1) أرسطو، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة بيروت – لبنان، ط3، 1973، ص 26.

(2) الكندي، رسائل الكندي، ج1، ص 167.

الذهنـــية أو الـــصور الذهنية للمدلولات. ومن ثم فإن التخيل عند الكندي يرتبط بسيكولوجيا الإدراك التي تهتم بطرق انطباع المحسوسات في الذهن أو في النفس؛ في حين يغيب عند الكندي إنتاج الصور اللامرجعية المخالفة للواقع.

تـــزداد صـــورة التخييل اتساعا في الثقافة العربية الإسلامية ونحن ننفتح على القـــرون اللاحقة لعصر الكندي لما عرفته هذه الثقافة من تطور ملحوظ بانفتاحها الواسع على الثقافات المجاورة وفي مقدمتها الثقافة اليونانية؛ وهو ما سيجعل المفاهيم الفلـــسفية على الخصوص تعرف نوعا من التركيب والتعدد في المعاني والمدلولات الـــتي تشير إليها. الأمر الذي نلمسه في مفهوم التخييل أيضا. ففي تعريف لإخوان الصفا (القرن الرابع الهجري) للمتخيلة ووظائها نصادف ما يلي:

"إن لهـــذه القوى (أي المتخيلة) خواص عجيبة، وأفعالا طريفة، فمنها تناول رســـوم المحـــسوسات جميعا وتخيلها بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها، ومـــنها أيـــضا أنهـــا تتخيل ما له حقيقة وما لا حقيقة له، بعد أن عرف بسائطها بـــالحس، إذ لـــه من القوة ما يقدر أن يوافي الصور التي أداها الحس إلى النفس في هـــيولاه كـــيف شاء، لأنه كان يجدها مجردة عن الهيولى التي هي ماسكة للصورة ومختلفـــية بعـــضها دون بعض، فإذا أخذها لا إمساك لها ولا رابط أمكنه أن يؤلف بيـــنها كما شاء، ويركبها ويصل بعضها ببعض، ما لم تكن متصلة بالهيولى، مثال ذلك أن الإنسان يمكنه أن يتخيل بهذه القوة جملا على رأس نخلة، أو نخلة ثابتة على ظهر جمل، أو طائرا له أربع قوائم أو فرسا له جناحان أو حمارا له رأس إنسان، وما شاكل هذه مما يعمله المصورون والنقاشون من الصور المنسوبة إلى الجن والشاطين وعجائب البحر مما له حقيقة ومما لا حقيقة له"[1].

يثير موقف إخوان الصفا هذا قضية مهمة في التخييل، وهو يتحدث عن هذه القـــدرة الحافظة للصور المتخيلة. فإنتاج الصورة التخييلية يتم عبر مرحلتين: المرحلة الأولى هـــي مـــرحلة الاســـتقبال والإدراك، وتتعلق بالطريقة التي تستقبل بها هذه المتخـــيلة الـــصور المفردة من الواقع، وتتم حفظها مجردة عن الهيولى. فقوة المتخيلة تكمـــن في قدرتها على تجريد الصور المادية من مادتها، والهدف من ذلك هو إتاحة إمكانية إعادة إنتاجها في صورة جديدة قد تكون مخالفة تماما لصورتها الأصلية.

---

(1) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا، ج3، ص 416.

والمـــرحلة الثانية تتمثل في إعادة إنتاج هذه الصور المخزنة في المتخيلة، وهي المـــرحلة التي تلعب فيها المتخيلة دورا أساسيا بحيث تتمكن من إعادة تركيب هذه الصور المفردة في صور جديدة تبتعد كثيرا أو قليلا عن مثيلاتها في الواقع. فإبداعية التخييل إذن بالنسبة لإخوان الصفا يتمثل في هذه المرحلة "إعادة الإنتاج"، فالصورة المركبة قد تجمع بين المتناقضات التي لا يستصيغها منطق الواقع.

ما يمكن استنتاجه من هذا التصور أيضا أن تركيب الصور الذي ركز عليه إخوان الصفا، يهدف إلى إعادة إنتاج معرفة جديدة قد تكون مجردة وغير ملموسة، فتجسدها المتخيلة في صور مادية لتبرز مخالفتها لمنطق الواقع، ويتمثل ذلك في "ما يعمله المصورون والنقاشـــون من الصور المنسوبة إلى الجن والشياطين وعجائب البحر، مما له حقيقة ومما لا حقـــيقة له". فالمتخيلة إذن تلعب دور المتوهم، فبإمكانها أن تخلق صورا ذهنية مجردة دون أن يكون لها مقابل في الواقع، ويتم ذلك عبر مستويات مختلفة.

بالانـــتقال إلى ابن سينا يجد الدارس نفسه أمام موقف جديد هو أكثر تقدما ودقـــة. فابن سينا استطاع أن يتمثل الفلسفة اليونانية وبالضبط المواقف الأرسطية المـــتعلقة بالتخييل والمحاكاة، ثم نقل هذه المفاهيم ليبلورها في أرضية ثقافية جديدة هـــي الثقافة العربية الإسلامية. فالحديث عن التخييل الشعري مثلا لن يكون بنفس الصورة بين الشعر اليوناني والشعر العربـــي؛ ولهذا فالمفهوم سيأخذ شحنة جديدة من خصوصيات الشعر العربـــي الذي يعتمده ابن سينا في إعادة تأسيسه.

تميـــز موقـــف ابن سينا بمحاولة تجاوز المدركات البصرية كما هو الشأن مع إخـــوان الـــصفا، ليستحضر التخييل الذهني القائم على الصور السمعية والحركية (الفعلية)، مركزا على الطريقة التي يتولد بها التخييل في النفس:

"وطرق وقوع التخييل في النفس إما أن تكون بأن يتصور في الذهن شيء عن طـــريق التفكير وخطرات البال، أو بأن تشاهد شيئا فتتذكر به شيئا آخر، أو بأن يحاكـــى لـــه الشيء بتصوير نحتي أو خطي أو ما يجري مجرى ذلك أو أن يحاكى له صـــوته أو فعله أو هيئته بما يشبه ذلك من صوت أو فعل أو هيئة أو بأن يحاكى له معـــنى بقول يخيله لها، أو بأن يوضع لها علامة من الخط تدل على القول المخيل، أو بأن تفهم ذلك بالإشارة"[1].

---

(1) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 89-90.

التخييل عند ابن سينا إذن هو تمثل ذهني وهذا التمثل لا يأتي بطريقة واحدة، بل هو نتيجة لعلل مختلفة. والجديد فيه هو أنه يرتبط بالجانب الوجداني أكثر من ارتباطه بالجانب العقلي. فهذه الصور التخييلية تدفع إلى الانفعال إما انبساطا أو انقباضا. أما بخصوص وقوع التخييل في النفس فهو يأتي من الطرق الآتية:

أ. تصور عن طريق التفكير.

ب. التذكر عن طريق الرؤية (المشاهدة) فالشيء المرئي يدفع إلى تخيل ما هو غائب.

ج. محاكاة الشيء المخيل بواسطة النحت أو التصوير.

د. محاكاة المخيل بواسطة الصوت أو الفعل أو الهيئة.

هـ - محاكاة معنى المتخيل بالقول أو العلامة الخطية.

و. إفهام المتخيل بالإشارة.

تبرز هذه المستويات التخييلية أن ابن سينا جمع طرقا متعددة تدخل جميعها في إطار التواصل بمفهومه الحديث؛ تبتدئ هذه العلاقة التواصلية بالعلامة الإشارية، ثم العلامة اللغوية (لفظية كانت أو خطية)، لتتسع وتشمل مستويات أعلى وأعم كالمحاكاة الصوتية أو الفعلية أو النحتية. وفي هذه المستويات كلها يكون التخييل هو المكون الرابط بينها، باعتباره يحول هذه العلامات الخارجية لفظية كانت أو غير لفظية إلى صور ذهنية تتمثلها المخيلة. ومن ثم فإن التخييل عند ابن سينا يرتبط بهذه العمليات الذهنية التي تحول الإشارات والعلامات إلى صور داخلية مدركة. وهذه العمليات الذهنية في غالبها هي إعادة إنتاج للصور تلعب فيها الجوانب الذاتية دورا أساسيا بحيث قد تنحرف هذه الصور الذهنية المتخيلة عن مقابلاتها العلاماتية الموجودة بالمرجع الخارجي، وبذلك فمفهوم الصدق ولا صدق في الإنتاج التخييلي يصبح غير ذي جدوى كما هو الحال في الشعر مثلا "أعذب الشعر أكذبه". فعلى الرغم من لا معيارية الصدق في الإنتاج التخييلي (الشعر مثلا) فإن الانفعال الوجداني يثبت قيمة هذه الصور التخييلية الإبداعية.

يحضر الجانب الوجداني النفسي بقوة في تصور ابن سينا للتخييل، ولهذا يقصي جانب التصديق فيه ليركز على الجانب الانفعالي الذي يحدثه في نفسية المتلقي، في مقابل الخطابة التي تعتمد التصديق، وتقوم على الحجة والبرهان:

"والمخـــيل هـــو الكلام الذي تدعن له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار؛ وبالجملة تنفعل له انفعالا نفسيا غير فكري سواء أكـــان المقول مصدقا به أو غير مصدق به، فإن كونه مصدقا به غير كونه مخيلا أو غـــير مخـــيل. فإنه قد يصدق بقول من الأقوال ولا ينفعل عنه، فإن قيل مرة أخرى وعـــن هيـــئة أخرى انفعلت النفس عنه طاعة للتخييل لا للتصديق، فكثيرا ما يؤثر الانفعال ولا يحدث تصديقا، وربما كان المتيقن كذبه مخيلا"[1].

ومـــا تجـــدر الإشارة إليه ونحن نتابع تصورات ابن سينا للتخييل هو أن هذا المفهـــوم ارتبط بقوة بمفهوم المحاكاة في الشعر، وقد كان لهذا الارتباط دور أساسي في موقـــف ابـــن سينا من التخييل الذي يأتي في الأمثال والقصص، حيث اعتبر أن "الـــشعر يفيد التخييل الذي يعتمد على محاكاة أمور موجودة بالضرورة، أو ممكنة الوجـــود، في حين أن الأمثال والقصص تفتقد هذا النوع من التخييل لاستنادها إلى أمور ليس لها وجود إطلاقا"[2].

بـــناء على هذه التصورات الفلسفية الموجزة التي قدمناها في الفقرات السابقة يمكننا أن نخرج بخلاصة أولية تضع لنا إطارا عاما لمفهوم التخييل بالصورة التي تبلور بها في الفلسفة الإسلامية – وإن كنا قد أغفلنا بعضها (ابن رشد مثلا) لأنها تسير في نفس الاتجاه تقريبا – ويمكن أن نجمله في:

- ارتباط مفهوم التخييل بمفهوم المحاكاة في غالب الأحيان.
- اعتماد التخييل الشعري نموذجا للتخييل دون غيره من أنواع التخييل الأخرى.
- حـــصر التخيـــيل في العلاقة الرابطة بين الصور الذهنية والمرجع الخارجي لها، والوســـائل المعتمدة في إعادة إنتاجه (أصوات – إشارات – أفعال – ألفاظ – نحت...).
- الفـــصل بين التصديق المنطقي والتخييل المرتبط بالانفعال والوجدان، وبالتالي ارتباط التخييل بالجانب النفسي دون الجانب العقلي.
- تميز تصور إخوان الصفا بخاصية مهمة للتخييل في إعادة إنتاج الصور التخييلية المركبة التي قد تتجاوز الصور المفردة المرجعية إلى صور جديدة ليس لها مقابل

(1) ابن سينا، كتاب الشفا، ضمن كتاب فن الشعر، ص 161.
(2) نفسه، ص 183.

في الواقـــع. وهـــذه الخاصـــية تعتبر في نظرنا أساسية لأنها ستساهم في بلورة الجوانب الإبداعية للتخييل الذي يكسر منطق الواقع.

## 1- 2- التخييل في الدراسات البلاغية:

ممـــا لا شـــك فيه أن الدراسات البلاغية العربية استفادت كثيرا من الدرس الفلسفي، وحاولت تأسيس مفاهيمها البلاغية معتمدة على المفاهيم الفلسفية ولكن دون أن تتبـــناها كمـــا هـــي. وهذا ما يعطي للدرس البلاغي العربـــي جوانب الخصوصية والتميز. ولن نتابع في هذا المقام كل التصورات البلاغية التي اهتمت بهذا المفهـــوم، لأنـــنا لا نـــروم تقديم تاريخ له، بل نحاول أن نضع اليد على معطيات وخـــيوط تمكنـــنا من إعادة تأسيس المفهوم بصورة يتلاءم مع طبيعة النصوص التي نشتغل بها في الثقافة العربية الإسلامية، ويسعفنا في تحديد أدوات منهجية لمقاربتها. ولهذا فإننا سنتوقف عند التصورات التي تبدو لنا أساسية في المجال البلاغي العربـــي من أجل تقديم صورة شبه عامة حول التخييل في البلاغة العربية.

ارتـــبط التخييل في البلاغة العربية بعلمين أساسيين لا يمكن الحديث عنه دون الـــتوقف عندهما: عبد القاهر الجرجاني، وحازم القرطاجني. وسأضع إلى جانبهما قطـــبا ثالثا أعتبره متميزا في طرح القضية من وجهة نظر مغايرة، ويتعلق الأمر بابن وهب الكاتب.

القـــضية الأساسية التي تمهد لنا الدخول لمقاربة التخييل في البلاغة العربية هي المتعلقة بالحكم القيمي للجملة الخبرية "صدق/كذب". ومعلوم أن هذه الثنائية نصادفها في العديد من الكتب البلاغية والنقدية العربية. وقد اختلف في الطريقة التي يحدد بها هذا الكذب في الخبر؛ فمنهم من جعل الخبر الكاذب ما كان مخالفا للواقع، ومنهم من جعله مخالفا لاعتقاد المتكلم. وسواء كان هذا الموقف أو ذاك فإن القيمة الصدقية للكلام هي الـــتي تمنحه مشروعية التداول؛ غير أن هذا اللاصدقي استطاع أن يجد لنفسه مكانا أو فـــضاء، ويستقطب له جمهورا خاصا اهتم به وتتبع تطوراته عبر خطابات نصية مختلفة تلتقي جميعها في هذه القيمية اللاصدقية التي هي "التخييل".

يطـــرح ابن وهب هذه الثنائية "صدق/كذب" في إطار حديثه عن خصائص الحـــديث؛ ويمكن أن نربطها بثنائة أخرى تدعمها وتبرز موقف ابن وهب الكاتب

مـــن أنـــواع الحديث، وهي ثنائية "الجد/الهزل"، فجعل من الجد كل كلام أوجبه الـــرأي، وتدعو إليه الحاجة؛ أما الهزل فقسمه قسمين: ما ارتبط باستعمال الحكماء والعقلاء، وهو بالنسبة لهؤلاء يؤخذ مأخذ الجد، لأنه يستعمل للترويح عن النفس، واستعادة نشاطهم وحيويتهم؛ ومنه ما ارتبط بالسفهاء والجهال حيث يقصدون به المجون والخلاعة واتباع الهوى، وهو مذموم مردود على أصحابه[1].

تكتـــسب هاتـــان الثنائيتان قيمة تخييلية عند ابن وهب الكاتب، ويكون من المجحـــف أن نحـــصر معناهما في القيمة الخلقية الاجتماعية التي تعبر عنها مباشرة. وتـــتأكد هذه القيمة التخييلية لهذه الخصائص عندما ينتقل ابن وهب للحديث عن بعـــض الأنواع الكلامية التي يتجاوز فيها التخييل جانب المحاكاة بمعناها الشعري؛ فهـــو يـــشير إلى القـــصص والأمثال وعلى عكس ابن سينا أعطى ابن وهب لهذه القـــصص وظيفة اجتماعية وتربوية مستندا في ذلك على اعتمادها في القرآن الكريم لإعطاء العبرة والموعظة:

"وأمـــا الأمثال والقصص فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمـــثال، ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشباه والأشكال، ويرون هـــذا الـــنوع من القول أنجح مطلبا، وأقرب مذهبا، ولذلك قال الله عز وجل، ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل... وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكنا فهو يحتاج إلى ما يدل على صحته، والمثل مقرون بالحجـــة، ولـــذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقـــصص عن الأمم، ونطقت ببعضه على ألسنة الطير والوحش، وإنما أرادوا بـــذلك أن يجعلـــوا الأخـــبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها..."[2].

يضعنا ابن وهب الكاتب بهذا الموقف أمام صورة ثلاثية الأبعاد، فهناك القول الـــصادق، وهو الكلام الحقيقي المطابق للواقع والذي لا تخييل فيه، وهناك الكذب الخالص الذي يعتبر لديه مردودا لأن فيه نوعا من التضليل، وهو غير مطابق للواقع، وبـــين هذا وذاك يوجد ذلك الكذب المحمود الذي لا يطابق الواقع وإنما يحيل عليه

(1) ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص 247.
(2) نفسه، ص 145-146.

بشكل من الأشكال، وهو الذي يمكن أن نصنف فيه التخييل باعتبار مقاصده المرتبطة بتحريك المشاعر والتأثير في النفس وانفعالها.

مع عبد القاهر الجرجاني نكون أمام عالم بلاغي متميز استطاع بالفعل أن يؤسس تصورا بلاغيا خاصا يعتمد على ضبط المفاهيم وتعليل سياقاتها. وقد يكون مفهوم "التخييل" من المفاهيم التي حظيت لديه بعناية خاصة. وقد خصص حيزا مهما للحديث عن التخييل في كتابه "أسرار البلاغة"، حيث وضعه ضمن مستويات الصورة البلاغية، وجعله في مرتبة ثالثة بعد التشبيه والاستعارة؛ أي أن الصورة التخييلية هي أكثر عمقا وإبداعا من التشبيه ومن الاستعارة.

يرد الحديث عن التخييل عند الجرجاني في فصل خاص عنونه ب "في الأخذ والسرقة وما في ذلك **من التعليل وضروب الحقيقة والتخييل". وقد قسم الفصل قسمين: قسم عقلي، وقسم تخييلي؛ وما يهمنا نحن هو هذا القسم التخييلي، ويعرف هذا القسم بقوله:

"وأما القسم التخييلي فهو الذي لا يمكن أن يقال أنه صدق، وإن ما أثبته ثابت، وما نفاه منفي، وهو مفتن المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلا تقريبا، ولا يحاط به تقسيما وتبويبا، ثم إنه يجيء طبقات، ويأتي على درجات، فمنه ما يجيء مصنوعا قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق، حتى أعطى شبها من الحق، وغشي رونقا من الصدق، باحتجاج يخيل، وقياس يصنع فيه ويعمل"[1].

يضع الجرجاني التخييل مقابلا للحقيقة، وينفي عليه الجانب الصدقي، وهي الخاصية التي أثبتها ابن سنا للتخييل سابقا وهو يضعه مقابلا للتصديق. غير أن الجرجاني يرى أن التخييل لا يأتي على صورة واحدة، بل هو على طبقات أو درجات. فما التقسيم الذي يعتمده الجرجاني في التخييل؟

يؤكد الجرجاني خاصية أساسية للتخييل هو أنه "أظهر أمرا في البعد عن الحقيقة، تكشف وجهه في أنه خداع للعقل وضرب من التزويق" (ص 239). فمراتب التخييل إذن تحدد من خلال قربه أو بعده عن الحقيقة، فمنه القريب المأخذ الذي يسميه التخييل الشبيه بالحقيقة مما أصله تشبيه (ص 242)، ومنه التخييل مع حسن التعليل، ويأتي في مرتبة ثانية ويعرف هذا القسم من التخييل بقوله: "وهو أن

(1) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 231.

يكون لمعنى من المعاني والفعل من الأفعال علة مشهورة عن طريق العادات والطباع، ثم يجيء الشاعر فيمنع أن تكون لتلك المعروفة، ويضع له علة أخرى" (ص 257). فهذا التخييل لا يتأسس على العلة المشهورة في العرف والعادات، بل الشاعر يتجاوزها إلى البحث عن علة جديدة يرى أنها الأمثل والأقوم لجعل هذا التخييل قريبا من الحقيقة. ثم يتحدث أخيرا عن تخييل بغير تعليل (ص 262)، ويميز بينه وبين السابق بقوله"وهو يرجع إلى ما مضى من تناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه إلا أن ما مضى معلل" (ص 262). فهذا القسم يلتقي مع القسم السابق في البعد عن التشبيه وتناسيه غير أن القسم السابق معلل، وهذا القسم غير معلل، ويركز فيه على العلاقة بين الأوصاف المحسوسة والأوصاف المعقولة.

ينفي الجرجاني مبدأ التصديق على التخييل، ويجعله قائما على التوهم والخداع، ويخلص إلى القول بأن ما يريده بالتخييل هو "ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى" (239).

من خلال هذه الجولة السريعة في كتاب أسرار البلاغة يمكن أن نسجل الخلاصات الآتية:

أ. التخييل عند الجرجاني يرتبط بالكذب المطلق والخداع.

ب. يأتي التخييل على مراتب حسب قربه أو بعده من الحقيقة، وحسب ارتباطه بتعليل أو عدم ارتباطه به.

ج. التخييل مكون بلاغي أقوى من التشبيه والاستعارة.

د. ارتباط التخييل مثله في ذلك مثل سائر المكونات البلاغية الأخرى بالشعر.

يزداد الحديث عن التخييل اتساعا مع مقاربة حازم القرطاجني الذي يعتبر بحق واضعا لأسس نظرية للتخييل في الثقافة العربية الإسلامية. ويظهر من خلال كتاب "منهاج البلغاء" أن القرطاجني سار على النهج الذي خطه الفلاسفة المسلمون للتخييل الشعري وفي مقدمتهم ابن سنا، غير أنه عمل على توسيع الرؤية والتفصيل في التخييل باعتباره مكونا أساسيا للإبداع الشعري. وقد يطول بنا المقام إذا نحن حاولنا تتبع التفصيلات الكثيرة التي جاء بها القرطاجني في كتابه. والتخييل في أبسط صوره عند حازم هو "أن تتمثل للسامع مع لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو

أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة الانبساط أو الانقباض"[1].

يرتبط التخييل عند حازم بجانب التلقي، فهو المشكل لتلك الصور التي ينفعل لها وهو يسمع القول الشعري، وبالتالي فإن أثر التخييل هو أثر نفسي بالدرجة الأولى، يتعلق بالإيهام ومخادعة المتلقي؛ وهو يهدف إلى أن تحرك "قواه غير العاقلة وتثيرها بحيث تجعلها تسيطر أو تخدر قواه العاقلة وتغلبها على أمرها، ومن هنا يذعن المتلقي للشعر ويستجيب لمخيلاته"[2]. التخييل إذن لا يرتبط بالقوى العقلية، بل يخاطب القوى النفسية ويؤثر فيها، وتستطيع هذه القوى النفسية بتخييلاتها أن تسيطر على القوى العقلية.

وإلى جانب لفظ "التخييل" وظف القرطاجني ألفاظا أخرى قدم من خلالها تجليات الإبداع الشعري بين المرسل والمتلقي ومنها: التخيل، المحاكاة، القوة المخيلة، والقوة المتخيلة. وقد جعل التخيل مفهوما مقابلا للتخييل باعتباره يرتبط بالمبدع وهو ينتج صوره الشعرية. فالتخيل عنده هو "القوة الإدراكية الفاعلة لعملية المزج بين الأشياء وإدراك العلاقات الظاهرة والكامنة فيها" (ص 70)، أي أنه يرتبط بالجانب الإبداعي، في حين يرتبط التخييل بالجانب التأثيري، وتحريك النفس لمقتضى الكلام، وحملها على الإقبال على الشيء أو النفور منه. وبهذا المعنى يكون التخيل مرادفا للفظ "المحاكاة"، وهو ما يؤكده جابر عصفور في كتابه "مفهوم الشعر"[3].

يسهب القرطاجني الحديث عن التخييل في علاقته بالإبداع الشعري، حيث اعتبره المحدد لصناعة الشعر، وليس "كون الأقاويل صادقة أو كاذبة" (ص 71). ولهذا فإن معيار الصدق والكذب يغيب عن طبيعة التخييل، ليصبح المقوم الأساسي فيه هو قدرته في التأثير على المتلقي. فالتخييل "لا يقصد منه إلا التأثير النفسي للقول ذاته دون النظر في مطابقة ذلك القول لشيء خارج عنه، لذلك كان الصحيح في الشعر أن مقدماته تكون صادقة وتكون كاذبة، وليس يعد شعرا من حيث هو صدق أو هو كذب، بل من حيث هو كلام مخيل" (ص 63)، لأن النفس

---

(1) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 89.
(2) جابر عصفور، الصورة الفنية، ص 66.
(3) جابر عصفور، مفهوم الشعر، ص 195.

اشـــتد ولـــوعها بالتخييل وانفعلت لصوره حتى "أنها ربما تركت التصديق للتخييل فأطاعت تخيلها وألغت تصديقها" (ص 39).

بصورة تتحرى الدقة والإتقان يقدم القرطاجني طرق تشكل صور المعاني بين المرســـل والمتلقي، مؤسسا لفعل تواصلي تخييلي يبلور مراحل تشكل الصورة لدى المرسل وقنوات إرسالها ليعاد تشكيلها من طرف المتلقي:

"إن المعـــاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لمـــا أدرك مـــنه؛ فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخـــر مـــن جهـــة دلالة الألفاظ، فإذا احتيج إلى وضع رسوم من الخط تدل على الألفـــاظ لمن لم يتهيأ له سمعها من المتلفظ بها، صارت رسوم الخط تقيم في الأفهام هيآت الألفاظ، فتقوم بها في الأذهان صور المعاني، فيكون لها أيضا وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليها" (ص 18-19).

يركـــز القـــرطاجني علـــى الطريقة التي تتولد بها الصور التخيلية في علاقتها بالواقع، من خلال الربط بين الصور الذهنية والمرجع الخارجي، فكل معنى هو نتاج لهـــذه العلاقة، غير أن القرطاجني يعمق هذه العلائق في نوع من التراتبية الدالة على صـــور المعاني، فيجعل اللفظ معبرا عنها من درجة أولى، والرسم الخطي معبرا من درجة ثانية، وهما الكفيلان بإعادة إنتاج الصورة لدى المتلقي في حلة جديدة ليست بالـــضرورة هـــي الموجـــودة لـــدى المرســـل. إنه يقدم خطاطة تواصلية تضبط ميكانـــزمات التواصل بين المرسل والمتلقي، ويمكن اختزال هذه الخطاطة في الشكل الآتي:

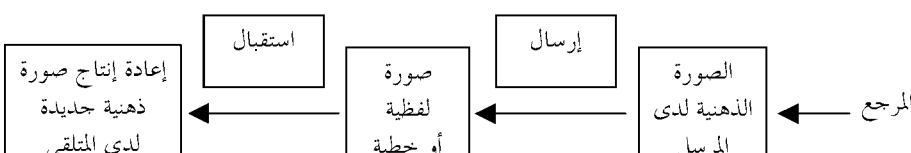


نخلـــص مـــن خلال هذه الجولة السريعة عبر مجموعة من التصورات العربية (الفلسفية والبلاغية) إلى أن حضور مفهوم التخييل ارتبط بخلفيات معرفية ومنهجية

استدعتها بالضرورة طبيعة المادة التخييلية المتعامل معها "الشعر". ولهذا فالتخييل اتخذ طابعا شعريا خالصا وإن أشارت بعض الدراسات إلى تخييل أو محاكاة غير شعرية (ابن وهب الكاتب)، غير أن هذه الإشارة الجزئية لم تكن كافية لتوسيع المفهوم في اتجاه نصوص تخييلية مغايرة للنص الشعري. ويمكن أن نجمل خصوصيات التخييل في الثقافة العربية في الملامح الآتية:

- التخييل خاصية تميز الإبداع الشعري.
- ارتباط التخييل بالتلقي.
- استهداف التخييل الجانب النفسي في المتلقي دون الجانب العقلي.
- تكسير التخييل جانب التصديق أو مطابقة الواقع في الصور التخييلية.
- اعتماد التخييل التركيب في الصور التي تلتقط من الواقع مفردة، ولا يشترط في تركيبها احترام منطق الواقع.
- القصد من التخييل الإقناع، ليس بالحجج المنطقية، ولكن بالاستمالة النفسية للمتلقي.

هذه الخصائص وإن ارتبطت بالإبداع الشعري وحده فإنها قابلة لاستيعاب النصوص التخييلية الأخرى التي عرفتها الثقافة العربية الإسلامية، لما تميزت به هذه النصوص التخييلية النثرية من تكسير لمنطق الواقع، واعتماد صور تخييلية مركبة تزاوج بين ما له مرجع في الواقع وما لا مرجع له، في نوع من الانسجام والتناغم.

## 2- التخييل في الدراسات الحديثة:

لقد استطاعت العلوم الإنسانية الحديثة أن تحقق قفزة نوعية في مجال المناهج والأدوات الإجرائية لمقاربة القضايا العامة التي تهتم بها؛ وفي ظل هذا التطور أولت اهتماما كبيرا للجانب الاصطلاحي، وهو ما ساعد على اتساع المفاهيم وتعدد دلالاتها. فكل مجال معرفي يحدد حقل اشتغاله ومن خلال حدود هذا الحقل يطوع المفاهيم ويضبط معانيها. وقد حتم هذا الاتساع على كل دارس في أي مجال من المجالات أن يعيد تأسيس مفاهيمه وفق التصور الذي يراه مناسبا لقضاياه وأهدافه.

مفهوم التخييل الذي هو موضوع دراستنا هنا هو الآخر استفاد من هذا التعدد في الحقول المعرفية التي اهتمت به، وأصبح من العسير جدا منح الأولوية لهذا

التعـــريف أو ذاك دون وضع المبررات المصوغة للاختيار. فمن الفلسفة والمنطق إلى الـــنقد الأدبـــي مرورا بالأنتربولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع، ونظرية المعرفة والتداوليـــة وغيرهـــا، يجد الدارس نفسه أمام ركام معرفي يصعب حصره أو تحديد تعالقاتـــه المعقدة دون أن يكون له الحق في إلغاء هذه التعالقات. وبالتالي فإن الدقة والـــضبط تتطلبان منه التأني في التعامل مع هذه الحقول المعرفية، وتأملها من أجل الظفـــر ببعض الخيوط الرابطة التي تمكنه من العبور من هذا الحقل إلى ذاك دون أن يفقد انسجام منهجه وتناسق مقاربته.

لا أود أن أفـــصل كـــثيرا في الوقـــوف عـــند هذه الحقول المعرفية المختلفة، وســـأختزل مجهودي في هذا المبحث في تقديم هذه التعريفات المختلفة للتخييل التي نـــصادفها في الدراســـات الحديـــثة، معتمدين على بعض الدراسات التي اهتمت بالتخيـــيل في ذاتـــه مستهدفة وضع تصور شبه منسجم لهذا المفهوم وتحديد طبيعته وخصوصياته ومقاصده في علاقته بالواقع من جهة وبالإبداع الفني بصفة عامة من جهة ثانية.

من أجل أرضية أولية أكثر انفتاحا في تعريف التخييل نتوقف عند مقال لوران جـــيني Laurent Jenny بعنوان "la fiction"[1]، يستهله بالإشارة إلى تعدد معاني التخييل، ويمكن أن نختزل هذا التعدد في التعريفات الآتية:

أ. التخيـــيل كنقـــيض للحقيقة: ويمكن أن نعتبر التخييل في هذه الحالة نوعا من الكـــذب المقـــصود أو الهـــادف. وغالبا ما يستعمل هذا المفهوم في لغة الحياة اليومـــية. ففي الوقت الذي يواجه شخص ما محاوره بقوله "قولك هذا تخييل"، فهو يعني بذلك أن هذا الكلام غير حقيقي ومخالف للواقع.

ب. التخيـــيل باعتـــباره بناء تصوريا: وهو المعنى الذي يقربنا من المفهوم الفلسفي للتخييل بالصورة التي يحددها كانت "Kant" وهو يتحدث عن الزمن والفضاء كتخيـــيلات استكشافية. إن هذه التخييلات التصورية ليست مخالفة للحقيقة كمـــا هو الشأن في المعنى الأول، بل هي تصورات ذهنية مساعدة على تأويل الواقع. وقد أصبح هذا المعنى هو السائد حتى في الدراسات الأدبية التي تتعامل مع المحكيات بما في ذلك التاريخية كتكوينات بنائية للمعنى.

---

(1) Laurent Jenny, la fiction, www.unige.ch.

ج. التخيـــيل باعتـــباره عالمـــا دلاليا: ويتعلق هذا المعنى بعوالم التخييل المدمجة في الأعمال الأدبية، والتي تصف هذه العوالم وتحدد علاقاتها بالواقع؛ وتستلهم هذه العوالم دلالتها من نظرية العوالم الممكنة.

د. التخيـــيل باعتـــباره جنسا أدبيا: اعتادت الدراسات في المجالات الأنكلوفونية والفـــرانكوفونية على استعمال لفظ "التخييل" للدلالة على نوع أدبـــي يقابل "اللاتخيـــيل"، أي مجموع الأنواع الجادة (مثل السيرة الذاتية والشهادات...). وقد تساءلت مجموعة من الدراسات حول مدى تميز التخييل بخصائص تلفظية ونصية خاصة أو أن المؤشرات الخارجية والموازيات النصية فقط هي المميزة له.

هـــــ - التخييل كحالة ذهنية: وفي هذا الإطار يزداد المفهوم اتساعا ليشمل تلك الحالات التي تتقمص فيها الشخصيات أدوارا خاصة سواء على خشبة المسرح أو في السينما؛ إضافة إلى الحالات الذهنية التي تتولد عن قراءة عمل تخييلي ما، وكذا ألعاب الأطفال وهي تزج بلاعبها للاندماج في هذه الأدوار الإلكترونية بكل فاعلية وانفعال.

هـــذه المعاني التي قدمها لوران جيني وإن بدت في إطارها العام مختلفة فإنها لا تنفـــي التداخل وإمكانية الجمع بين بعضها خصوصا تلك التي ركزت على الجانب الأدبـــــي منه. فالتخييل يكتسب دلالته من خلال مساهمته في بناء العوالم السردية للمحكـــيات، وتبقى العوالم الممكنة صورة من صور التخييل التي يتضمنها الخطاب الأدبـــي.

وإيمانا منا بهذا التداخل بين هذه المعاني المختلفة، سنركز هنا على جانب يبدو لي أكثـــر أهمـــية في إغـــناء المفهـــوم وتحديد إطاره، ويتعلق الأمر بما أسماه جيني بـــــ "حدود التخييل"؛ وهذه الحدود ترتبط أساسا بالدلالة من جهة وبأبعاد عوالم التخييل وبنائها من جهة ثانية.

## 2- 1- حدود التخييل:

يرى لوران جيني أنه يصعب وضع حدود دقيقة للتخييل، لأن الحالة التخييلية لعـــالم أدبـــــي ما ليست مجزأة بالقوة، وليست مستقرة تاريخيا؛ فأغلب الأعمال الدرامية والملحمية القديمة، لا تؤخذ على أنها كلها تخييل، وحتى الشخصيات المدمجة

في هـــذه الأعمال من آلهة وأبطال تكتسب شرعيتها من خلال الواقع الطبيعي أو الأســـطوري الـــذي ينتجها، وبالتالي فتلقيها يختلف من عصر إلى آخر، وشرعيتها الواقعية يتحكم فيها الإطار الطبيعي والأسطوري والعقدي الذي يحكم هذه الفترة التاريخـــية. ولا يمكـــن الجـــزم بـــأن ما تضمنته الملاحم القديمة هو أقل واقعية من الشخـــصيات الـــتي تحفل بها الرواية الحديثة مثلا (مدام بوفاري، جان فال جان، كوزيط...).

تثـــبت هذه المعطيات أن التخييلية ليست حالة مستقرة ولا مفهوما ثابتا، بل هـــي مفهـــوم متغير تاريخيا تحكمه المعطيات والخلفيات الفكرية التي تضع حدودا للمفهوم "التخييلية".

يفـــصل جـــيني الحديث في خصائص التخييل وأبعاده انطلاقا من مجموعة من الأعمـــال الـــنقدية الغـــربية، ويعمل على تحديد أبعاده وطبيعته الأدبية بناء على مقومات أسلوبية، وهي عناصر سنعود للحديث عنها بتفصيل لاحقا، لأن هدفنا في هذا المدخل هو تحديد المفهوم أولا من خلال هذه التصورات المختلفة التي قاربته.

ينطلق جان ماري شيفرJ.M. Schaeffer في مقاله المعنون بـــ " de l'imagination à la fiction"[1] مـــن التعريف المعجمي للقاموس "Robert" الذي يعرف التخييل بأنـــه "هـــو الذي لا يوجد إلا في الخيال، والذي لا يحيل على واقع بعينه"، فاللفظ يحيل على تمثيلات لا ترتبط بأي واقع غير ذهني، وهو يجسد هذه السيرورة الذهنية التي تخلق مجموعة من التمثيلات المجردة عن كل قوة مرجعية. إنه إذن على المستوى المنطقي يحيل على مدلول باطل.

يتـــرك شيفر في البداية التخييل الأدبـــي جانبا ليحدد طبيعة التخييل ووظائفه في حقـــول معـــرفية ترتبط بالعلوم الدقيقة، ويشير إلى الرياضيات التي تلجأ إلى فرضيات تخييلـــية من أجل حل بعض المعادلات من الدرجة الثانية أو المعادلات من الدرجة الثالثة الـــتي استعـــصى حلـــها. فإذا كانت خاصية دلتا delta قد وجدت حلولا للعديد من معـــادلات الدرجـــة الثانية فإنها لم تستوعب حلول معادلات الدرجة الثالثة، وبالتالي الـــتجأت الرياضـــيات إلى افتراض الأعداد العقدية التي تندرج ضمن المجموعة C وهي أعداد لا وجود لها لأنها تمثل المربعات السالبة، فكانت الخاصية على الشكل الآتي:

(1) J..M. Schaeffer, de l'imagination à la fiction. www.vox-poetica;org.

a + bi، علـــى اعتبار أن a وb عددان حقيقيان وأن i هو عدد عقدي مربعه ســـالب ($i^2$=-1). وقـــد اســـتحدثت هذه الأعداد العقدية من أجل إيجاد حلول للمعـــادلات مـــن الدرجة الثالثة التي تندرج ضمن الأعداد الحقيقية، والتمكن من وضـــع مواقعها على المعلم؛ ولهذا فالأعداد العقدية التخييلية لا تأتي لتجرد الأعداد الحقيقية من طبيعتها، ولكن لتحفظ الوضع الإبستيمي للسيرورة المعرفية التي أدمجت فيها.

وبـــناء علـــى هذا التصور اعتبر شيفر أن التمثيل الذي لا يطابق أي موضوع حقيقـــي يمكـــن أن يكـــون عنصرا ضروريا في العمليات الذهنية التي تقوم على موضـــوعات حقيقـــية، دون أن تـــشوش هـــذه العملية التخييلية بشكل أو بآخر أنطولوجـــيا علـــى السيرورة التمثيلية التي تدخل فيها، وبالتالي يمكن أن نسلم بأن التخيـــيل ليس فقط جسرا من أجل بلوغ الواقع، وإنما هو شرط ضروري من أجل هذا البلوغ.

بالـــرجوع إلى التخيـــيل الأدبـــي يرى شيفر أن القضية الأساسية التي يمكن طرحها في هذا المجال هي العلاقة التي تربط التخييل بالمحاكاة: هل التخييل الأدبـــي يحاكـــي الحياة؟[1]. وعلى الرغم من أن أغلب الأجوبة عن هذا السؤال تنحو نحو الإيجـــاب، فإن شيفر يتحفظ عن ذلك معتبرا أن النص لا يمكنه أن يحاكي إلا نصوصا أخـــرى؛ كمـــا يعتبر المحاكاة والتنميط مظهرين يحددان كل تخييل بما في ذلك التخييل الأدبـــــي. ولهذا يمكن أن نقول "إن التخييل الأدبـــي يحاكي الحياة إذا كنا نعني بذلك أن هـــذا التخييل يحضر تنميطات ووضعيات وأفعالا، والقارئ وهو يقرأ هذا التخييل يتخـــيل الوضعيات الموصوفة، والأفعال المسرودة، لأن غاية التخييل اللفظي... والمعيار الحقيقي لنجاحه أو فشله يكمنان في مدى خلق نموذج لعالم ما" (ص 261).

أطـــروحة شيفر هنا تحاول أن تؤطر التخييل تأطيرا أنتروبولوجيا، وتهدف إلى معرفة الميكانـــزمات المتحكمة في إنتاجه، وهو الشيء الذي أفصح عنه منذ البداية عندما قال: "عملي هذا يتموقع في مستوى أولي: فالأمر يتعلق بمحاولة فهم الأسس الأنتـــروبولوجية للتخيـــيل" (12)، الـــذي لا يمكن أن يفهم إلا "إذا انطلقنا من الميكانـــزمات الأساسية لـــ "فعل كما لو" «comme si» المتعلق بالتصنع اللعبـــي،

(1) J..M. Schaeffer, Pourquoi la fiction, p. 259.

ومـــن التظاهـــر التخييلي الذي يلاحظ تكونه في لعب الأدوار، وفي أحلام يقظة الأطفال" (11). وهكذا يرى شيفر أن مفهوم التخييل يرتبط بمفاهيم متعددة، تلتقي في أشياء وتختلف في أخرى أوجزها في التالي:

- مفهوم المحاكاة.
- مفهوم التصنع.
- مفهوم التظاهر.
- مفهوم الظل أو الشبح.
- مفهوم التكثيف.
- مفهوم التجميع.

وكلها مفاهيم تحتاج في إنجازها إلى إعادة إنتاج ذهنية لخلق فعل جديد قريب أو بعيد من الواقع.

## 2- 2- التداولية ومفهوم التخييل:

تـــأتي التداولـــية في مرحلة عرفت فيها العلوم الإنسانية تطورا ملحوظا مع ما حققـــته الدراسات البنيوية من إنجازات في هذه المجالات. وقد استغلت هذه النتائج البنـــيوية وجعلـــت منها الفرضيات الأساسية التي انطلقت منها نحو توسيع آفاق البحث والتحليل في مجال التواصل.

وإذا كانـــت التداولية في مجمل تصوراتها واتجاهاتها قد اهتمت بخطاب الحياة اليومـــية، والموجهات التي تتحكم في عملية التواصل بين المرسل والمتلقي، فإنها لم تغفـــل جانـــب التخيـــيل باعتـــباره تجليا من تجليات التواصل الإنساني، وحاول التداولـــيون أن يجـــدوا لخطـــاب التخييل أرضية تداولية لمقاربته، وتعرف حقائقه وأهدافه، والنتائج التي يحققها على مستوى التطور المعرفي لفعل التواصل.

توقفـــنا في فصل سابق عند التداولية كتصور منهجي حاول أن يطور أدوات التحلـــيل في مقاربـــة الخطاب اللغوي، خصوصا القضايا التي أقصيت أو أهملت في مجال الدراسات اللسانية، وتجنبا للتكرار سنتوقف هنا فقط عند مفهوم التخييل كما حددتـــه الدراســـات التداولـــية، والأسئلة التي ارتبطت به، وكيف حصرت مجال الاشتغال به في مجموعة من القضايا التي تعتبر ذات طبيعة تداولية خالصة.

خصـــصت آن روبـــول في مؤلفاتها المختلفة – كتب ومقالات – حيزا مهما لمقاربـــة التخيـــيل، واســـتطاعت بالفعل أن تجمع شتات تصورات تداولية مختلفة "ســـورل – كوين – غودمان – سبربر وويلسون"، لتقدم من خلالها تصورا مركبا يعـــالج قضية التخييل تداوليا في صورة عامة، تبرز عبرها أهم الإشكالات والقضايا التي يجب معالجتها وإيجاد حلول تداولية لها.

تعتبر روبول أن المقاربة التداولية للتخييل هي رهينة بالإجابة عن مجموعة من الأسئلة المتعلقة بطبيعة التخييل، ويمكن إجمالها في ما يلي:

- كيف نعالج المشكل الأنطولوجي للتخييل؟
- الكيانات التي يحيل عليها التخييل هل توجد بالفعل؟
- هل تحتفظ العناصر الموجودة فعليا بخصائصها المرجعية نفسها؟
- هل يتغير التخييل من عالم إلى آخر؟
- إذا كانـــت أحداث التخييل غير موجودة، فكيف يمكن أن نحدد تجاهها وجهة نظر معينة؟
- مـــا العلاقة بين الدلالة التي ينتجها الخطاب العادي اليومي والدلالة التي ينتجها خطاب التخييل؟

عملـــت روبول على وضع تصور خاص للتخييل يلائم المقاربة المنهجية التي ســـتعتمدها في تحديـــد خصوصياته. ولهذه الغاية وضعت مجموعة من التصورات المـــتجاورة من أجل أن تخضعها للفحص والتدقيق وتختار من بينها الصورة الأقرب للمقاربة التداولية. وعناصر الصورة هي متفرقة بين إنجازاتها المختلفة، وسنعمل على تجمـــيعها مـــن خلال استحضار مقاطع نصية من هنا وهناك. فالتخييل "هو تمثيل يـــصف كـــيانات غير موجودة"[1]، وهو "يساهم رغم كذب معظم الأقوال التي تكون خطابه في بناء تمثل للكون أو تجويده"[2]، والأعمال التخييلية ترسل رسالة أو مجمـــوعة من الرسائل تمرر عبر النص ولكنها لا توجد فيه"[3]، والمتكلم في الخطاب التخييلي يدعي الإخبار دون أن يسعى إلى حمل مخاطبه على الاعتقاد بأنه إزاء إخبار

---

(1) Ibid., p. 12.
(2) Ibid., p. 17.
(3) Anne Reboul, Réalités de la fiction, livre électronique, p. 97.

خالص"[1]. وهكذا يمكن اعتبار التخييل خطابا منفتحا قابلا لاستيعاب عوالم مختلفة وغير متجانسة، وتظهر قوته في قدرته على منح هذا الكل اللامتجانس انسجاما نوعيا يساعد على مقروئيته وتلقيه. فهو خطاب "يتداخل فيه الصادق والكاذب على مستوى الفضاءات والشخصيات والأزمنة والأحداث، لكنها تتآلف جميعها لتكون عوالم غير صادقة ولكنها تلميحية"[2].

فرضت هذه الصورة المركبة للتخييل على روبول مناقشة القضايا الأساسية المشار إليها أعلاه من أجل وضع التخييل في إطاره الطبيعي، وتحديد القوى التي تكسبه مشروعيته التواصلية على مر الأزمنة والأجيال. واعتبرت أهم عائق بالنسبة للتخييل هو المشكل الأنطولوجي. وقد أبرزت في هذا الجانب أن لا جدوى أنطولوجية التخييل تظهر واضحة في التصور السردي الذي وضعه جنيت وهو يتحدث عن ثلاثية: المحكي – القصة – السرد، إذ يصعب وضع حدود دقيقة نعبر من خلالها من الحدث كقصة إلى الحدث كفعل سردي. وعملت على معالجة هذا الاضطراب التنظيري من خلال بعض المواقف الفلسفية التي تأسست عليها الدراسات التداولية مثل تصورات سورل وغودمان، حيث يميز الأول بين الخطاب التصويري figuratif والخطاب التخييلي fictif فالأول هو خطاب غير حرفي، بينما الثاني هو خطاب غير جاد. ويميز بين الخطاب الجاد والخطاب التخييلي "غير الجاد" من خلال قوانين الخطاب، فالخطاب الجاد يستدعي بالضرورة مبدأي الصدق والحقيقة، ولا مكان لهذين المبدأين في خطاب التخييل[3]، ويفترض سورل أن مؤلف التخييل يختلق "il feint" دون أن تكون له قصدية تضليل المستمع أو القارئ. أما غودمان فيميز بين التمثيل والتعبير، فيعتبر الدلالة التمثيلية هي ما يقدمه العمل مباشرة، والدلالة التعبيرية هي ما يوحي به العمل من معرفة[4]. وفي مجال التخييل تكون الدلالة التمثيلية غير ذات جدوى أو غير موجودة مطلقا "représentation avec dénotation nulle"[5].

---

(1) آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة لطيف زيتوني، منشورات المنظمة العربية للنشر، ص 198.

(2) Réalités de la fiction, p. 56.

(3) التداولية اليوم، ص 37-38.

(4) Anne Reboul; rhétorique et stylistique de la fiction, p. 31.

(5) Ibid., p. 31.

وعلى الرغم من هذه الحلول الفلسفية، ترى روبول أن المشكل مازال قائما، ومن الضروري البحث عن حلول له. وقد أسست تصورها للتخييل ومقاربته على نظـــرية الملاءمـــة كما وضعها وطورها سبيربر وويلسون. واعتبرت أن مفهوم الملاءمة قـــادر علـــى استيعاب كل الإشكالات التي ترتبط بالتخييل، خصوصا تلك التي تتعلق بالوضع المعرفي للأشياء التي يتحدث عنها التخييل[1]. وكان السؤال الموجه لها في إعادة بناء المقاربة هو: كيف يمكن لملفوظ ما أن يكون ملائما دون أن يكون صادقا؟

لحل هذا الإشكال تضع روبول تصورات غودمان إلى جانب تصورات سبيربر وويلـــسون، لتؤكد التكامل بين معالجة غودمان للتعبير والتحليل الاستعاري الذي يقـــوم بـــه سبيربر وويلسون[2]، وبالتالي فإن ملفوظات التخييل بالنسبة لها شبيهة بالاســـتعارة، والـــتماثل فـــيها لا يقوم على التشابه بين القصة التي تحكى والعالم الواقعـــي، ولكنه يقوم على تأويل الاستلزامات السياقية للقصة والفكرة التي يقصد المؤلـــف تمريـــرها للمتلقي[3]. وقصدية المتكلم في التخييل كما في الاستعارة هي إرسال مجموعة من الاستلزامات المتعلقة بالملفوظ، ومبدأ الملاءمة يستعمل من أجل تحديد الاستلزامات التي يرغب المتكلم في إرسالها من بين كل الاستلزامات السياقية للملفوظ.

تهـــتم التداولـــية بالجانـــب الاستدلالي في التخييل، باعتباره المبدأ الذي يميز الخطـــاب الجـــاد الصادق عن الخطاب التخييلي، وتؤكد على لا كينونة الكيانات التخييلـــية، وأن وجـــودها يرتبط فقط بتمثيلاتها التي تتجلى عبر الملفوظات. وهذه الخصائص لا تفقد خطاب التخييل خاصيته المعرفية التواصلية، وهي خاصية تتمظهر عـــبر المقومات السياقية والاستلزامات الخطابية التي يعيد المتلقي تأسيسها من أجل بلوغ الدلالة التي يقصد إليها المرسل أو المتكلم. وبالتالي فإن قوة التخييل تتمثل في ذاك البعد المعرفي الضمني الذي يتضمنه ولا يمكن إدراكه مباشرة.

ولا تـــتحدد العلاقـــة بـــين الواقع والتخييل فقط في البعد المعرفي الذي يمرره خطاب التخييل، بل العلاقة بينهما تبقى وطيدة وعلى مستويات مختلفة ومتداخلة.

---

(1) Ibid., pp. 37-38.
(2) Ibid., p. 38.
(3) Ibid., p. 45.

فالتخييل يستلهم عوالمه من الواقع، ويقصد إلى **إعادة بنائه في صورة يعتقد المرسل أنها النموذج الذي يجب أن يكون عليه. ومن ثم فإن عوالم التخييل تتداخل فيها الكيانات التخييلية والكيانات الواقعية. وإذا كانت الأولى تكتسب مشروعيتها من خلال ما تحمل من دلالة إيحائية ضمنية حول الواقع، وما تعبر عنه من حقائق، يعتقد المرسل في صدقيتها، ويعمل على إقناع المتلقي بجدواها وفاعليتها، فإن الكيانات الواقعية التي تتسرب إلى عوالم التخييل تكون من جهة داعمة لهذه الدلالة الضمنية التي يقصدها المرسل، وتفقد في غالب الأحيان من أجل القيام بهذه الوظيفة، العديد من ملامحها الواقعية الحقيقية، لتكتسب ملامح جديدة تتلاءم وعوالم التخييل التي تتحرك فيها.

التخييل إذن هو محيط معرفي ممتد الأطراف تتحرك فيه الذاكرة الإنسانية لتبدع من خلاله ما تعتقد أنه يلامس الحقيقة من بعض جوانبها، وترى فيه نموذجا لما تطمح إليه وترغب في تحقيقه، فهل يمكن أن يكون تعويضا عن الواقع المحدود الذي يتحرك فيه الإنسان ماديا؟

قد يكون كذلك، خصوصا إذا علمنا أن عوالم التخييل هي الكفيلة بأن تخلق الانسجام بين العناصر المتنافرة، وأن تؤلف في صورة تركيبية عجيبة بين أشياء أو عناصر متباعدة على مستوى الزمان والمكان دون أن يشعر المتلقي بأن هناك شرخا أو تنافرا بين هذه العناصر المتداخلة. إن خاصية الانسجام الجوهري هذه هي التي ضمنت للتخييل الاستمرار عبر عصور متلاحقة دون أن نحس في أية لحظة من اللحظات بأن مكوناته استهلكت ذاتها، وبلغت النفق المسدود. فالتخييل متعدد في صيغة مفرد، متعدد لأنه تضمن ما لانهاية من النصوص التخييلية وفي مجالات متعددة دون أن نشعر بأن الواحد يكرر الآخر وإن كانت النصوص تتعالق ببعضها البعض، والتعالق ميزة الإبداع الإنساني في سيرورته التاريخية، ومفرد لأنها كلها تدخل تحت مسمى واحد ويستوعبها جميعها دون أن نشعر بخلل في التسمية.

امتد التخييل من مستوى أولي بسيط يتجسد في ما يدعى "الشبيه بالواقع"، الذي يستمد عوالمه من الواقع الفعلي مباشرة، ولا يجد المتلقي صعوبة في ربط المكونات التخييلية بمرجعياتها الواقعية، إلى مستوى مركب يتجاوز فيه الدلالة المباشرة للخطاب إلى دلالة ضمنية تحتاج من المتلقي تأسيس سياق خاص لتلقيها واستيعابها؛

وقـــد يكـــون التـــركيب أكثـــر تعقيدا عند المزاوجة بين الكيانات الحقيقية الفعلية والكـــيانات التخييلـــية العجائبية أحيانا والتي تفرض منطقا معينا في قراءتها كما هو الـــشأن في بعـــض النصوص العجائبية التي تدمج في عوالمها التخييلية شخصيات أو أحداثا لها صلة بالواقع التاريخي المرجعي، وهي الوضعية التي تحتاج إلى أدوات خاصة للحفاظ على انسجام هذه العوالم وتفاعلها وهي تؤسس دلالتها. وعندما أشار جان فرانـــسوا لـــيوطار إلى أن "في كل خطاب تاريخي هناك محكي أسطوري كبير نفهم بواســـطته كـــل ثقافة"[1]، فإنه كان يدرك بالفعل التداخل المعقد الذي يربط الواقع بالتخييل، وأن المعرفة الإنسانية ترتبط عبر هذا النظام المركب الذي يؤلف بين كل ما تنتجه الذاكرة البشرية وهي تتلقى إشارات مباشرة أو غير مباشرة من واقعها الفعلي.

## 3- تركيب: محاولة في إعادة التأسيس:

نطمح ونحن نؤسس مفهوم التخييل عبر تصورات نظرية ومعرفية متعددة إلى وضـــع إطـــار منسجم له نتمكن من خلاله قراءة نصوص عربية تراثية لها طبيعتها الخاصة، لنتعرف الميكانـــزمات المتحكمة في اشتغالها وهي تنتج دلالة معينة.

ارتبطت جل التصورات السابقة بالتخييل باعتباره محاكاة لأفعال واقعية أو أنه مخالـــف للواقع. وذهبت التداولية أبعد من ذلك عندما اعتبرته خطابا غير جاد. ولا جديته هنا ليست نابعة من كذبه، لأن متلفظ التخييل ومتلقيه يربطهما ميثاق يؤشر علـــى لا حقيقة الرسالة، بل هي مرتبطة بالدلالة غير الطبيعية التي يتضمنها خطاب التخييل، ويدعو متلقيه إلى فهمها وإدراكها.

بهذه الصورة يمكننا أن نؤشر على أن التخييل ليس بالضرورة أن يكون مخالفا للواقع أو منافيا له؛ فقد يكون جزءا من الواقع ويستغل أحداثا واقعية حقيقية ليمرر عـــبرها هذه الدلالات الضمنية التي يسعى إلى إبلاغها لمخاطبه. فما هو واقعي أو حقيقـــي يمكنه أن يستغل استغلالا تخييليا فيصبح جزءا منه، كما يمكن أن يتعايش التخييلي إلى جانب الواقعي بشكل متفاعل ومتداخل يساهم في إنتاج دلالة جديدة تمرر عبر رسالة تواصلية.

---

(1) A. Gefen; aux frontières de la fiction. www.scienceshumaines.com.

عـــندما نـــتأمل جانبا مهما من التجليات السردية العربية القديمة ندرك هذا التفاعل المتميز بين الواقعي والتخييلي الذي ميز الثقافة العربية الإسلامية في القرون الوسطى. فاعتماد السند مثلا في إرسال مجموعة من الأخبار التخييلية يكون عاملا مهما في ربط جسور التواصل بين المرسل والمتلقي في العديد من النصوص السردية. ولهـــذا فخطـــاب الواقـــع كان حاضرا بقوة في مساحة سردية واسعة من السرد العربـــي القديم، دون أن يلتزم بالوثوقية التي يتطلبها الخطاب التاريخي مثلا؛ فكانت التخييلـــية مقوما مركزيا في العديد من الإنتاجات السردية التي اعتبرت حتى فترات متأخرة من التاريخ العربـــي الإسلامي خطابات واقعية مرجعية.

التخييلـــية في مـــثل هذه الخطابات لا تأتي من الزيف أو التحريف في الوقائع والأحـــداث، ولكـــن تتسرب إلى الوقائع عن طريق إفراغها من دلالاتها المرجعية لـــشحنها بدلالات جديدة تتلاءم وسياق إنتاج الخطاب، تأتي هذه الدلالة الجديدة إمـــا بالتجاور بين أحداث واقعية وأخرى تخييلية لتكون الأخيرة مدعمة للأولى، أو بانتقائية في الوقائع المسرودة، تساهم في توجيه فكر المتلقي في اتجاه معرفة مقصودة، أو في مقارنـــة تخييلـــية بين وقائع حقيقية متفرقة تجمع في سياق واحد فتنتج دلالة مغايرة لدلالاتها المباشرة.

إن التخييل الذي نروم مقاربته في هذه الدراسة هو المرتبط بالمحكيات الوقائعية Récits factuels الـــتي تتجلى في صورتها الأولى كسرود تنتج ما وقع وتعمل على توثيقه، لأن وظيفة التخييل هنا تكتسب خصوصية دلالية بما تضيفه على الأحداث والوقائع من دلالات ضمنية بعيدة عن دلالتها الطبيعية، والتي تستخلص من خلال الـــسياق العام الذي أنتج فيه النص. فما وقع يكتسب دلالته المباشرة الطبيعية من الملابـــسات الـــتي وقـــع فيها، لكن عندما يعاد إنتاجه في زمن مغاير، وفي سياق سوسيو – ثقافي مغاير يكتسب دلالة جديدة ترتبط بهذا السياق، وقد تكون علاقة رابطـــة بين الدلالتين الأولى والثانية، وهي التي تشكل جسر المرور من الواحدة إلى الأخـــرى. وسنستعين في ذلك بما قدمناه في الفصل السابق من تصورات وأدوات تداولـــية تضمن العبور من الدلالة الطبيعية إلى الدلالة غير الطبيعية في النصوص التي نشتغل بها.